

في الفلسفة الطبيعية

المباحثات

Bibliotheca Alexandrina



2143283

براسة وشحذق
د. محفوظ عزام

في

الفلسفة الطبيعية

عند الملاحظ

الكتاب : في الفلسفة الطبيعية عند المباحث

الطبعة الأولى

١٩٩٥ / ١٤١٦ م

جميع الحقوق محفوظة

في الفلسفة الطبيعية

رقم الإيداع : ٩٥/٥٩٢٢

I.S.B.N.977-5502-13-6

الناشر : دار الهدایة للطباعة والنشر والتوزيع

في

الفلسفة الطبيعية

عند الجاحظ

د. محفوظ علي عزام

أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد

كلية الدراسات العربية

جامعة المنيا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أعزني على إنجاز هذا البحث المتواضع، والصلوة والسلام على الرسول الشافع. ويسعد.

فهذا بحث يتناول جانباً مهماً لدى مفكر كبير من مفكري الإسلام وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذي عاش في القرنين الثاني والثالث الهجريين. هذا الجانب هو الفلسفة الطبيعية؛ فالجاحظ - كما يتضح من مؤلفاته العديدة - كان مهتماً بدراسة جوانب الطبيعة المختلفة، وفي مختلف ظواهرها، سواء كانت جمادات أو معادن أو نباتات أو حيواناً أو إنساناً. كما كانت دراسته تقوم على الملاحظة والتجربة، في محاولة منه لاستبطاط القوانين التي تخضع لها الطبيعة، ولإبراز حكمة الله تعالى في الخلق والتقويم. وهذا هو معنى أن "الجاحظ" فيلسوف طبيعي، إذ ليس معنى القول بالفلسفة الطبيعية عند الجاحظ، أن الجاحظ يقول إن المادة مكتفية بخصائصها الطبيعية ومكتفية بنفسها، فهذا

والحق أن أصلة أبي عثمان تتجلى في أبحاثه في هذا الجانب المهم . وتنتجلي هذه الأصلة عند ما نقارن بينه وبين فلسفه الكبير من القدماء وهو "رسطو" . ومن هنا جاءتني فكرة هذا البحث ، لأنني أصلة هذا الرجل في حقل الفكر الإسلامي ، وفي جانب لم يهتم به الباحثون كثيراً ، ولعل ما حفزني لإثبات هذه الأصلة أنني قرأت قوله بعد القاهر البغدادي في كتابه : الفرق بين الفرق يقول فيه إن الجاحظ قد "سلخ معانى كتاب الحيوان لأسطاطليس" ، وبعد البحث وجدت أن هذا القول خطأ من البغدادي وليس قائماً على برهان علمي صحيح ومن ثم لا يمكن قبوله بحال من الأحوال .

ولا أستطيع - بطبيعة الحال - الادعاء باهتمامي
احصي كل ما قاله الجاحظ في طبيعتاته ، فهذا أمر

عسير المنال نظراً لضخامة ما كتبه الجاحظ وما
أجراه من دراسات وأبحاث في هذا المجال، ومن ثم
اكتفيت بأن أقي نظرات على هذه الفلسفة، ولكنني
أعتقد أنها نظرات ليست عابرة، وإنما هي نظرات
فاحصة متأنية تعبر عن مقصودي من هذا البحث.

على أية حال يجيء هذا البحث في ستة فصول
بعد هذه المقدمة القصيرة. ولقد عالج الفصل الأول
منها مكانة الجاحظ العلمية والفكرية وقواعد المنهج
العلمي عنده، بينما تناول الفصل الثاني جوانب
الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ ومعنى هذه الفلسفة
لديه. وفي الفصل الثالث حديث عن مفهوم الجماد أو
الموات أو غير النامي، وما يتصل بهذا الجسم من
مفاهيم فلسفية كالجزأ الذي لا يتجزأ والجوهر
والعرض والمداخلة والمجاورة. أما الفصل الرابع
فيعالج موضوع الحيوان عند الجاحظ متحدثاً عن
مصادر الجاحظ في علم الحيوان، والسبب في تأليفه
لهذا الكتاب وهو معارضة كتاب الحيوان لأرسطو،
وكذلك مورداً مقارنات بين أرسطو والجاحظ في
وصف بعض الحيوانات وما تتفق به كل واحد منها
على الآخر في بعض القضايا، وما تميز به الجاحظ

على أرسطو، وموقفه منه. والفصل الخامس وإن كان مكملا للرابع من حيث أنه متعلق بالحيوان إلا أنه يتناول إيداعات الجاحظ في مجالين مهمين وهما علم نفس الحيوان ونظرية التطور، وهما من العلوم الحديثة، وبالتالي يفهم من هذا أن الجاحظ كان سابقا لعصره وما بعد عصره. أما الفصل السادس والأخير فهو عن الإنسان عند أبي عثمان، فيتناول مفهوم الإنسان عنده، ومكانته، وكذلك العقل والنفس، وما تميز به الجاحظ في هذا المجال، وأيضاً تناوله للإنسان ككائن اجتماعي، وأخيراً ما يتضح لدى الجاحظ من نزعة إنسانية، تحن في أمس الحاجة إليها في وقتنا الحاضر.

فإن كنت قد وقفت في معالجة هذه القضايا فمن الله التوفيق، وإن كانت الأخرى فحسبى أنى حاولت. هذا والله الموفق والهادى إلى سوء السبيل.

د. محفوظ على عزام
١٩٩٥/١/٢٦

(٨)

الفصل الأول

مكانة الجامعات ومنهجها

أ - مكانة الجاحظ العلمية والفكرية:

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، متكلم وفيلسوف ولغوی وعالم طبیعی وأدیب ومؤلف قلما يجود التاريخ بمثله. وإذا استثنينا خصوص المعتزلة من الحكم على مكانة الجاحظ فسوف نجد المادحين له قدیماً وحديثاً أكثر من أن يحصوا.

ولا عجب في ذلك؛ فالجاحظ كان يجل القرآن والسنة والصحابة والتابعين حيث نجده يقول: "أحبنا أن نصيّر صدر هذا الباب كلاماً من كلام رسول رب العالمين، والسلف المتقدمين، والجلة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأئم، وملح الأرض – أي بركة الأرض – وحطى الدنيا، والنجوم التي لا يضل معها الساري، والمنار الذي يرجع إليه الباخي... وهم الذين جلوا بكلامهم الأ بصار الكليلة، وشحدوا بمنطقهم الأذهان العليلة، فنبهوا القلوب من رقتها، ونقلوها عن سوء عادتها، وشفوها من داء القسوة، وغباؤة الغفلة، وداوروا من العي الناضح ونهجوا لنا الطريق الواضح"(١).

(١) لـ الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢ ص ٥ - ٦ .

وكان يرى أن كتب الله تعالى أفضل الكتب وليس كتب الزنادقة والملحدين؛ فكتب الله "أكثـر من كتبهم نفعاً، وأشرف منها خطراً، وأحسن موقعـاً؛ كتب الله تعالى، فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل حكمة، وتعريف كل سـيئـة وحسـنة"(١). أما كتب الزنادقة فليس فيها "مـثل سـائر ولا خـبر طـريف، ولا صـنـعة أذـب، ولا حـكـمة غـرـيبة، ولا فـلـسـفة، ولا مـسـائـلة كـلامـية، ولا تعـرـيف صـنـاعـة، ولا استـخـراج الله، ولا تعـلـيم فـلاـحة، ولا تـدـبـير حـرب، ولا مـقـارـعة عن دـين، ولا مـناـضـلة عن نـحـلة، وجـلـ ما فيـها ذـكر النـور وـالـظـلـمة، وـتـاكـح الشـيـاطـين، وـتـسـافـد العـفـارـيت، وـذـكـر الصـنـدـيد، وـالتـهـويـل بـعـمـود السـنـنـخ.. وكلـه هـذـر وـعـي وـخـرافـة، وـسـخـرـية وـتـكـذـب، لا تـرـى فيـه موـعـظـة حـسـنة، ولا حـدـيـثـا مـونـقا، ولا تـدـبـير مـعـاش، ولا سـيـاسـة عـامـة، ولا تـرـيـب خـاصـة. فـأـي كـتاب أـجـهـلـ، وـأـي تـدـبـير أـفـسـدـ من كـتاب يـوجـب عـلـى النـاسـ الإـطـاعـة، وـالـبـخـوع بـالـدـيـانـة، لا عـلـى جـهـة الـاسـتـبـصـارـ وـالـمحـبةـ، وـلـيـسـ فـيـه صـلاحـ مـعـاشـ وـلـا تـصـحـيـحـ

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ٨٦ .

دين"(١).

إن الجاحظ متكلم مسلم مؤمن يدافع عن إسلامه وإيمانه بكل ما أوتي من قوة في قلبه وعقله وفكره ضد كل من يحاول الغرض من شأن الإسلام وعقائده، كل ذلك بأسلوب علمي رصين، ومن خلال ثقافة عصره الواسعة، ومن خلال ثقافته الإسلامية العميقـة، وقدرة على استخدام المنطق السليم والبرهان العقلي الصحيح.

من أجل هذا عَدَ الجاحظ شيخ المتكلمين حتى إن ثابت بن قرة يقول فيه: "ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس، أولهم: عمر بن الخطاب.. والثاني: الحسن بن أبي الحسن البصري.. والثالث: أبو عثمان الجاحظ - خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين"(٢).

وقد قال ابن نباتة عن الجاحظ إنه "إمام الفصحاء والمتكلمين، الذين ملأت الآفاق أخباره وفوائده حتى قيل: مما فضل الله تعالى به أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم: عمر

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) التوحيدـي: المقاييس ص ٥٢ - ٥٦ .

ابن الخطاب بسياسته، والحسن البصري بعلمه،
والجاحظ ببيانه^(١).

ويقول عنه المسعودي - وهو أحد خصومه -
إنه "لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتابا
منه"^(٢). وهي كتب "تعلم العقل أولاً، والأدب
ثانياً"^(٣).

ويذكر ابن المرتضى أنه "لا يعرف كتاب في
الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة
لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب
الجاحظ. وهذه كتبه في إثبات الرسالة وكتبه في
تصحیح مجيء الأخبار مشهورة"^(٤). ويقول ابن
المرتضى في موضع آخر: "فمن قرأ كتاب عمرو
الجاحظ في الرد على المشبهة وكتابه في الأخبار
وإثبات النبوة وكتابه في نظم القرآن علم أن له في
الإسلام غناً عظيماً لم يكن الله عز وجل ليضيعه
له"^(٥).

(١) ابن نباتة: مرح العون بشرح رسالة ابن زيدون ص ٢٤٨.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ج ٤ ص ١٣٥.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٨٩.

(٤) ابن المرتضى: طبقات المعتزلة من ١٥٤ - ١٥٥.

(٥) المصدر السابق ص ٢٢

فالجاحظ هو نسيج وحده في جميع العلوم؛ "جمع بين علم الكلام والأخبار والفتيا والعربية وتأويل القرآن وأيام العرب، مع ما فيه من الفصاحة، وله مصنفات كثيرة نافعة في التوحيد وإثبات النبوة وفي الإمامة وفضائل المعتزلة وغير ذلك"(١).

ولهذا قيل عن مذهب الجاحظ إنه "منبر باشیاء لا تلتقى عند كل إنسان ولا تجتمع في صدر كل أحد: بالطبع والمنشا والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمناسة والبلوغ، وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد، وسواءها مغلق قلما ينفك منها واحد"(٢). والجاحظ رائد في علم مقارنة الأديان ومجادلة اليهود والنصارى وغيرهما من الديانات(٣). كما أنه رائد في مجال علم نفس الحيوان وهو علم من العلوم الحديثة.

كما أن الجاحظ هو الواضع الأول لعلم "البلدان" وتأثيرها فيما يعيش فيها من البشر(٤). وإن

(١) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٢) لبو حيان التوحيدى: الامتناع والمناقشة ج ١ ص ٦٦ .

(٣) له رسالة في الرد على النصارى، وقد حققها صديقنا الدكتور محمد عبد الله الشرقاوى .

(٤) طه الحاجري: الجاحظ - حياته وأثره ص ٣٩٢ .

كان غيره قد سبقه في الحديث عن هذا الميدان إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه الجاحظ وبذلك يعد الواضع الحقيقي لهذا العلم.

ونستطيع القول بأن الجاحظ يعد أول واضع لكتاب عربي جامع في علم الحيوان، وإن كانت قد سبقته محاولات لطائفة من علماء اللغة والرواة مثل أبي حاتم السجستاني في الإبل والوحوش والطير والنحل والحشرات، والتضر بن شميل وأبي عبيدة وغيرهم يتحدثون فيها عن الحيوان. غير أن هذه الكتب لم تؤلف للقصد العلمي الخالص، ولم تكن على نمط كتاب الجاحظ، وإنما أريد بها أن تكون باحثة في اللغة أولاً، فهي بمثابة معجمات لغوية، خاصة بما ألفت له، فهي لا تبحث في طبائع الحيوان وعاداته وخصائصه وغرائزه، ولا تعنى بأحواله وعاداته، وإنما تجعل همها اللغة، وقد يكون منها ما يبحث في الحيوان بحثاً علمياً، ولكن ذلك كان على سبيل الاستطراد ومشابعة القول^(١).

ولقد كان أثر الجاحظ واضحاً وملموساً في أكثر الكتب والمؤلفات العربية التي توالت بعده وبعد كتابه الحيوان. وكذلك كان أثراه كبيراً في كثير من

(١) عبد السلام هارون: مقدمة تحقيق كتاب الحيوان ج ١ ص ١٤ .

مؤلفات الغرب التي تبحث في مجال علم الحيوان لأن هذا العالم المسلم الكبير كان جريئا فيما ذهب إليه من استنتاجاته والأخذ بها. فقد برهن الجاحظ عن دقة ملاحظة وقدرة هائلة على التصوير العلمي وإظهار المفارقات والخصائص التي تميز حيوانا من آخر، لأنه كان يعني عملية فائقة في تقصي التفاصيل والجزئيات وربطها بقرايتها. وهو كعالم حيوان كان يحاول أن يصنف، وكان تصنيفه بدائيا في بعض الأحيان، وإن كان لم يفارق ما سبقه من تصنيف. فالتصنيف الحق العلمي وليد القرن الثامن عشر، أي بعده بنحو تسعين قرون^(١).

وكان الجاحظ يحاول أن يضع القاعدة؛ فمثلاً يحدثنا عن الأرجل، ويذهب إلى أنها تكون أزواجاً، فإذا ما سمع بحيوان له مائة رجل لم ينكزه، ولكن إذا نقصت واحدة منها أنكره.

والجاحظ أول عالم من علماء الحيوان التجربيين، فقد كان يتذوق طعم الحيوان حتى السام منها كالعرب مثلاً، ويجري التجارب المختلفة

(١) د. أحمد حماد الحسيني: مقال "كتاب الحيوان للجاحظ" مجلة تراث الإنسانية، القاهرة ١٩٦٤ ج ٢ ص ٢٢٣.

ليرتَّل على سلوك الحيوان وغرائزه وخصائصه
وتكونه وغير ذلك.

كما أن الجاحظ أول عالم درس سلوك
الحيوانات وطرق التعاون والتكافل بينها، فمن ذلك
أنه يصف لنا التمساح وصفا بديعا وعلقه بأحد
الطيور فيقول: «أنه - أي التمساح - مختلف الأسنان
فيتشب فيه اللحم فيعمه، فينتن عليه»، وقد جعل في
طبعه أن يخرج عن ذلك إلى الشط ويُشحى (فتح)
فإذا لطائر يعرفه بعينه يقال إنه طائر صغير أرقط،
فيجيء من بين الطير حتى يسقط بين لحييه ثم ينقر
بمنقاره حتى يستخرج جميع ذلك اللحم فيكون غذاء
له ومعاشا، ويكون تخفيفا عن التمساح وترفيها،
فالطائر الصغير يأتي من هناك يلتمس ذلك الطعام،
والتمساح يتعرض له لمعرفته بذلك منه». وهذه
مشاهدة صادقة معروفة عن تمساح النيل، والطائر
اسمه «الزقزاق المصري»، وقد أخذ يقل من مصر
بعد اختفاء التمساح منها^(١).

ويضاف إلى هذه المكانة العلمية والفكريّة
للجاحظ أنه كان يؤمن بالتطور تبعاً للتغير الأحوال

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٠.

والأزمان، فهو يقول: "ولكل زمان ضرب من المصلحة، ونوع من المحنـة، وشكل من العبادة" (١). ومكانة الجاحظ العلمية والفكـرية تلك، كان يحس هو بها اعتدـاداً واعتزـازاً، حيث يقول: "حالـي أن الوزير يتـكلـم برأـيـي، وينفذ أمرـي، ويـواـتـرـ الخليـفةـ الصـلـاتـ إـلـىـ" (٢). وكيف لا، وهو صاحـبـ هذهـ المـكـانـةـ الرـفـيـعـةـ وـالـمـرـتـبـةـ العـالـيـةـ فـيـ مـجـالـ الـعـلـمـ وـالـفـكـرـ؟ـ وكـيفـ لاـ،ـ وـالـجـاحـظـ مـنـ المؤـسـسـينـ الـرـوـادـ لـالـمـنهـجـ الـعـلـمـيـ التـجـريـيـ فـيـ الإـسـلـامـ؟ـ وـبـذـلـكـ عـدـ فـيـلـسـوـفـاـ طـبـيـعـيـاـ.

ب - قواعد المنهج العلمي عند الجاحظ:

يعتمـدـ منهـجـ الجـاحـظـ فـيـ بـحـوـثـهـ وـدـرـاسـاتـهـ عـلـىـ عـدـةـ قـوـاءـ،ـ مـنـ أـهـمـهـاـ استـخـدـامـ الاستـقـراءـ القـائـمـ عـلـىـ الـمـلاـحظـةـ وـالـتـجـربـةـ،ـ وـالـرـوـحـ النـقـديـةـ العـالـيـةـ،ـ وـالـشـكـ المـنهـجيـ فـيـ كـلـ ماـ يـعـرـضـ لـهـ مـنـ درـاسـةـ وـبـحـثـ،ـ وـالـنـزـاهـةـ وـالـمـوـضـوـعـيـةـ وـالـإـنـصـافـ.ـ وـهـذـهـ كـلـهاـ مـنـ

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ص ٧.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١٢ ص ٢١٩.

الأمور المعروفة في المنهج العلمي وخصائص التفكير العلمي الحديث.

وفيما يتعلق بالقاعدة الأولى نستطيع القول بأن الجاحظ كان من أشهر العلماء المسلمين في مجال استخدام التجارب والبحوث والمشاهدة في إثاء وضع مؤلفاته وبخاصة في كتابه "الحيوان"، وقل ما كان يؤمن أو يصدق بكل ما يسمع، لذلك كان الجاحظ يهرع دائمًا للتثبت مما يسمع عنه، كلما سُنحت له الفرصة، حيث يلاحظ ويختبر في وقت كان التحقيق العلمي لا يزال في طفولته المبكرة، والخرافات والأساطير منتشرة بين الناس بصورة شائعة.

يقول الدكتور حسين فرج زين الدين في هذا الصدد: "للجاحظ في الحيوانات ملاحظات ومشاهدات تميزه عن غيره من فلاسفة وكتاب تلك العصور ومن كتبوا في الحيوان، وتقربه إلى ناحية العلم أكثر منهم، بل إن له بالفعل بعض تجارب علمية أجرها بنفسه، وهي وإن كانت لا ترقى إلى مرتبة التجارب المعملية إلا أنها ولا شك بذاتية طيبة ومبادرة منه على طريق العلم التجريبي" (١).

(١) د. حسين فرج زين الدين، د. رمسيس لطفي: دراسات في علم الحيوان ورولد للتاريخ الطبيعي، القاهرة، بدون تاريخ ص ٤٢٢ .

وكان الجاحظ - في منهجه التجريبي - يتدرج في أساليبه في البحث والنقصى، تدريجاً عمودياً، حتى يبلغ النزوة التي يشاوها له العلم. فهو يتدرج من الفرض العقلى، فالاستنتاج المبني على المنطق والجدل، فالرؤيا، فالاختبار والتجربة. والحقيقة أن الجاحظ قد يكون قد سبق كثيراً من علماء العصر الحديث في مجال إجراء التجارب والاختبارات فيما يخص الحيوانات، فقد جرب على أصناف شتى من الحيوان كالضب والحيات والظليم (النعام) والخفساء والسمك والعقارب والجرذ والنمل وجرب على النبات أيضاً. وكان في كل تجربة من تجاربه الكثيرة يذهب مذهباً خاصاً، فكان في بعضها يقطع طائفة من الأعضاء، وفي بعضها الآخر كان يلقى على الحيوانات ضرباً من السم، وحينما كان يرrom في تجربته إلى معرفة بيض الحيوان واستقصاء صفاتيه، وحينما كان يعزم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقائصته، ومرةً كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته، وكان في أوقات يبعج بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده، وفي أوقات يجمع أضداد الحيوان في إناء من قوارير ليعرف تقاتلها؛ وكان

يستخدم بعض المواد الكيماوية ليتعرف على مدى تأثيرها في الحيوان. وما يؤيد هذا أن الجاحظ – مثلاً – رأى أن الناس تزعم أن الأفاعي تكره ريح السذاب والشبح فجرب ذلك بنفسه وقال: "أما أنا فإني قد أقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أجد على ما قالوا دليلاً"(١).

ويصف إباء من زجاج وضع فيه عشرين عقرباً وعشرين فأرا ليرى ما فعلت العقارب بالفتان وبالعكس(٢).

ويقول بعض الباحثين المعاصرین عن تجارب الجاحظ: "قد نجد فيها صفة من صفات المجرب الحقن، وأريد بهذه الصفة التطلع العلمي، فإن هذا التطلع قد يحمل العالم على الاهتمام بأمور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعنى، وقد نجد فيها شيئاً من الصفات التي تستلزمها التجربة والتزه من كل غرض وإنما ينقصها لوازم التجربة في عصرنا هذا، فمن هذه اللوازم توسيع التجربة وبسط آفاقها، ونقلها من شكل إلى شكل، وقلبها، وما شاكل ذلك.

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٣٦٥ .

(٢) د. محمد الصالق عيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، القاهرة ١٩٧٧، ص ٢٤٢ .

فلئن كان الجاحظ يجرب فما رأيناه في بعض تجاربه يذهب مذاهب مختلفة وصولاً إلى الحقيقة، فما كان ينوع هذه التجارب أو يسيطرها أو يخرج بها من صورة إلى صورة أو يقللها من وجهه إلى وجهه، ولقد كان ينقصه شيء أعظم من هذا كله فيما أعتقد، فما كان يذهب من التجربة على أمور خاصة إلى استنباط القوانين العامة، وما كان يقابل بين أصناف الحيوان ويصنف ضرورب هذا، والمقابلة والتصنيف زكان من أركان التحقيق في علم الحيوان، وما رأيناه من بعض مقابلاته قد يكون كثيراً. على أن الجاحظ قد ظهر منذ أحد عشر قرنا وليس من العدل أن نكلفه أموراً لم تهتم إليها الفلسفة والعلم إلا من زمن غير بعيد^(١).

وكان الجاحظ يعتمد - في اختباراته وتجاربه - على نفسه أحياناً، وأحياناً أخرى على بعض أصدقائه من العلماء في إجراء مثل هذه التجارب والاختبارات العلمية على بعض الحيوانات لاستخلاص منها بعض النتائج التي كان يتواهها الجاحظ نفسه، كما نرى في الاتجاه العلمي الذي سار عليه في كتاب

(١) شفيق جيري: الجاحظ، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق ج ١١ من ٥٥٧ - ٥٦٤.

الحيوان.

أما فيما يتصل بالروح النقدية التي كان يتمتع بها الجاحظ فإننا نستطيع القول بأن هذه الروح إنما تصدر عن نزعة عقلية واضحة، تميزت بها المعتزلة بصفة عامة والجاحظ بصفة خاصة. فالعقل عند الجاحظ يحتل مكانة بارزة، فهو الحاكم على الحس "ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكون، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستيانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماماً على الأعضاء، وعياراً على الحواس" (١).

ومن هنا نجد الجاحظ يرد بشدة على أي خبر لا يتفق والمنطق العلمي الذي كرس حياته من أجله، ولا يقبل أي فكرة إلا بعد تمحيقها مهما يكن مصدرها.

ومن ثم تعرض للخرافات بالنقد ولم يقبلها وأنكر على أصحابها، من هذه الخرافات ما حدث بين المغيرة بن الفزر ومردوخه كرداشي عندما تضاربا فيما بينهما. يقول الجاحظ: "فاما ما ترويه

(١) الجاحظ: رسالة التربيع والتقوير، ص ١٩.

رواة السوء من شأن المغيرة بن الفزر ومردوه
كرداني بالأهواز، فهو من المحال الذي لا يخيل على
ذى عقل. قالوا: التقى فلاختلها ضربتين، فضرب
المغيرة وسطه فمن حدته وجودته ومن شدة ضربته
وقوته من السيف فى وسطه حتى لفذه من الجانب
الأخر، والمضروب لم يشعر به، ثم قال المضروب
للغير: ما صنعت شيئاً، قال المغيرة: قل إن كنت
صادقاً فتحرك، فلما تحرك تباين نصفاه فسقط
أحدهما عن يمين الفرس والأخر عن يساره. فهذا من
أحاديث الخرافات، وليس يحتمل هذا الضرب من
الأحاديث إلا من لا علم له^(١).

وهو ينقد المفسرين الذين نصبو أنفسهم
للعامة ليقولوا بغير روایة وعلى غير أساس، وكلما
كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم فكيف أثق
بتفسيرهم، وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا في قوله
عز وجل: ﴿وَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾: إن الله عز وجل
لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلى فيها، بل
إنما عنى الجباء وكل ما سجد الناس عليه، من يد

(١) الجاحظ: البرهان والعرجان والحوالان، ص ٢٤٤.

ورجل وجبهة وائف^(١).

ومن انتقاداته الاجتماعية انتقاده لمن يستحمقون رعاة الغنم حيث يقول لهم: "فاما استحمق رعاة الغنم في الجملة، فكيف يكون ذلك صوابا وقد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياء صلوا الله عليهم"^(٢).

ومن ذلك — أيضاً — انتقاده انعزال مرة الهمذاني وصلاته في اليوم والليلة خمسماية ركعة حتى لا يخوض في غمار ما يحدث في مجتمعه من فتن ومشكلات. يقول الجاحظ: "وأنا أسأل الله أن يغفر لمرة. على أنا لا نعرف لبعض ما قال وجهها؛ لأنك لا تعرف فقيها من أهل الجماعة لا يستحل قتال الخوارج، كما أنا لا نعرف أحدا منهم لا يستحل قتال اللصوص. وهذا ابن عمر، وهو رئيس الحلسية، بزعمهم، قد ليس السلاح لقتال نجدة"^(٣). ونجدة هذا هو نجدة بن عامر أحد الخوارج وإليه تنسب فرقة النجدات .

ومن انتقاداته الطبية ذلك الإنقاد الذي وجهه

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ من ٣٤٣ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ من ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ من ١٣٠ .

إلى جعفر بن يحيى عند ما رأى أن مرض "البرص" يكون نتيجة للعقوق، وهو متابع في ذلك لأطباء الهند. يقول الجاحظ: "قالوا: وهذا شيء أخذه جعفر بن يحيى عن أطباء الهند. وأطباء الهند ترجم أن العقوق يورث، البرص وهذه القصة مجانية لسبيل الطب" (١).

أما نقد الجاحظ للذين يزعمون أخباراً عن بعض الحيوانات، والتي لا تمت بصلة للعلم، من قريب أو بعيد، فإنه لا ينتهي؛ فمن ذلك قوله: "والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلة السفاد، والعصفور قصر عمره لكثره السفاد وغلمته - لو قالوا ذلك على جهة الظن والتقرير لم يلهم أحد من العلماء. والأمور المقربة غير الأمور الموجبة" (٢).

ومع أن الجاحظ يقر لليونان بأن لهم فلسفة وصناعة منطق، وأن "أرسطو" عالم يتميّز الكلام وتفصيله ومعانيه وخصائصه، إلا أنه يرى أن أرسطو كان "بكى اللسان، غير موصوف بالبيان" (٣).

(١) الجاحظ: البرصان والعرجان، ص ٣٦ .

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٢٢٣ .

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٣ ص ٢٧ .

وقد وجه الجاحظ كثيرا من الانتقادات لأراء أرسطو في الحيوان معتبرا عن أرسطو بـ "صاحب المنطق"؛ وهو يناقش أرسطو في أحکامه مناقشة الند للند، ولم يتورع عن اتهامه بالجهل في أكثر من مكان، فمن ذلك رده على بعض ما قال أرسطو حين زعم أن أصنافا من السباع المتزوجات المتلاقيات مع اختلاف الجنس والصورة معروفة النتاج، مثل الذئاب التي تهند الكلاب. يقول الجاحظ: "وقد سمعنا ما قاله صاحب المنطق من قبل وما يليق به منه أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يتحققها الامتحان ولا يعرف صدقها أشبهها من العلماء" (١). وقد ذكر أرسطو أنه قد لبصر ثورا وثب بعد أن خصي، فنزا على بقرة فأحبلاها. ويعقب الجاحظ على ذلك بقوله: "ولم يحك هذا عن معاينة، والصدر تضيق بالرد على أصحاب النظر، وتضيق بتصديق هذا الشكل" (٢).

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ١٨٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ٥٠٢ .

هذا فيما يتعلق بالقاعدة الثانية، أما القاعدة الثالثة فهي الشك المنهجي، والشك المنهجي ضرورة علمية حتى لا يسلم العالم بفكرة من حقها أن ترفض، أو أن يرفض فكرة من حقها أن تقبل. ومن هنا كان الشك عند الجاحظ سبيلاً إلى اليقين، فهو لا يشك في الأمور لمجرد الشك وإنما يشك ليصل إلى يقين قاهر. وفي كثير من الأحوال وجد الجاحظ نفسه يتقبل بعض الأحكام من غير استنتاج ومن غير جدل، يتقبلها كأمور بدائية حتمية كوجود الخالق وقدرته، فموقفه منها موقف المسلم المؤمن. أما في غير هذه الموضوعات، فإن **الجاحظ** يلزم جانباً الحذر، وكان يتتأكد من صدق حامل الخبر قبل الخبر. وعندما لا يصدق خبراً أو يشك فيه فإنه يثبت ذلك مع استخدام ألفاظ مثل: زعم، ويزعم، ويزعمون، وقيل، وما أشبه ذلك. ولا يكتفى الجاحظ بإيراد الزعم، ولا سيما إن كان صادرًا عن المشهورين من العلماء، بل يعمل على مناقشته وتنفيذه، ويخرج منه باستدلالات يدحض بها كثيراً من الخرافات والأساطير، فهو نفسه يدعوا — كما ذكرنا من قبل — إلى اعتماد العقل دون الحواس، لأن

الحواس خادعة. وقد أدرك الجاحظ أن الأساطير إذا مازجت العلم أفسدته وذهب قيمته البحتة، لذا يقول: "وقالوا فيخلق المركب ضروريا من الحق والباطل، ومن الصدق والكذب، فمن الباطل زعمهم أن الشبوط ولد الزجر من البنى، وأن الشبوط لا يخلق من الشبوط، وأنه كالبلغ في تركيبه وأنساله"(١).

وإذا كان الجاحظ يشك شكا منهجا ليصل إلى اليقين فإنه في الوقت نفسه يرفض الشك الذي لا يوصل إلى يقين وإنما هو شك لمجرد الشك، بل يرى الجاحظ أن هذا النوع من الشك متعب للإنسان ومحير له "وقد تعرف ما في الشك من الحيرة، وما في الحيرة من القلق، وما في القلق من التصب، وما في التصب من طول الفكر، وما في طول الفكر من الوحشة، وما في طول الوحشة من التعرض للوساوس والخفة.. وما في نزاع النفس من الكد"(٢). أما القاعدة الرابعة فهي النزاهة والموضوعية والإنصاف؛ وتلمس هذا من الجاحظ في أول

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) الجاحظ: التربيع والتدوير، ص ٣٩ .

كتابه الحيوان وفي كل أبواب الكتاب والكتب الأخرى وفي مختلف القضايا التي يعرض لها، ومما يدل على هذا قوله: "جنبك الله الشبيهة، وعصنك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا، وبين الصدق سببا، وحبيب إليك التثبت، وزين في عينك الاتصاف، وأذاك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما في الباطل من الذلة وما في الجهل من القلة" (١).

من أجل هذا نجد الجاحظ يعتذر - أحياناً - عن أرسطو، بأن المתרגمين لكتابه لم يحسنوا النقل، ولم يتوفروا الدقة والمطالبة. فهو يقول: "ولعل المترجم قد أساء في الإخبار عنه" (٢). ويقول في موضع آخر: "فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحريين وأحاديث السماسكيين، وإلى ما في كتاب رجل - يعني أرسطو - لعله إن وجد هذا المترجم أن يقيمه على المصطبة، ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه،

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٣ .

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٢ .

ومن إفساد معانيه، بسوء ترجمته"^(١).
وكان الجاحظ يتمتع بأمانة علمية بحيث إذا نسي شيئاً أثبت ذلك إحقاقاً للحق و عملاً بالموضوعية والنزاهة، فقد نسي إسناد خطبة من الخطب فسجل هذا بقوله: "خطبة أخرى ذهب عن إسنادها"^(٢).
ذلك هي أهم قواعد المنهج العلمي عند الجاحظ استنبطتها من كتبه الرئيسية التي بين أيدينا.

(١) المصدر السابق، ج ٦ ص ١٩ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢ ص ١٢١ .

الفصل الثاني

**جوانب الفلسفية الطبيعية
عند الجاحظ**

إذا كنا سنتحدث عن الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ في هذا الفصل، فإن معنى هذا أن الجاحظ فيلسوف، فهل هو كذلك؟ الواقع أننا إذا عدنا الفلسفة نظاما فكريًا متماسكا، محكم البناء والتصميم، فإننا لا نستطيع أن نعد الجاحظ فيلسوفا، لأنه لم ينسق أفكاره تسيقا دقيقا شاملأ، على غرار ما نجده عند من يسمون بالفلاسفة من أمثال أرسطو أو ديكارت، بحيث يكون مذهبها منسقا خاصا به.

وأيضا لا نستطيع أن نعده فيلسوفا إذا فهمنا الفلسفة على أنها مجموعة الدراسات التي ترجع جميع المعرفة البشرية إلى عدد محدد من المبادئ الأساسية وتعنى إلى تكوين نظرية شاملة عن العالم. فإننا لا نجد عند الجاحظ نظرية عامة شاملة أصيلة للعالم وتطور المجتمعات البشرية وليس عنده شيء مما ندعوه فلسفة العلوم أو فلسفة التاريخ أو فلسفة القانون على النحو الذي نراه عند ابن خلدون وكانت وهيجل وغيرهم.

غير أن الفلسفة اتخذت عند اليونان معنى المعرفة العقلية أو العلم بأوسع معانيه. حيث قسم أرسطو الفلسفة إلى قسمين: الفلسفة الأولى أو

الإلهيات، والفلسفة الثانية أو الطبيعتات. وبهذا المعنى يمكن اعتبار ما كتبه الجاحظ أبحاثاً فلسفية، لأنَّه عالج موضوعات ميتافيزيقية وطبيعية متعددة: تكلم عن الله، خالق الكون ومنظمه من حيث وجوده وصفاته وإدراكه وعلاقته بالإنسان كما تحدث عن بعث الرسل ودورهم في إرشاد البشر ودلائل صدقهم، واهتم بالطبيعة فدرس ما فيها من كائنات مختلفة، جماد وحيوان وإنسان، فوجد فيها طبائع تسيرها ينبغي الاعتماد عليها لفهمها، كما وجد فيها من دقة الصناعة ما يدل على حكمة الله تعالى وجوده. وبذلك يكون قد ربط ربطاً محكماً بين قسمي الفلسفة المذكورين آنفاً.

كما أنَّ الجاحظ قد عالج موضوع المعرفة معالجة جادة، إذ تطرق إلى طبيعتها ووسائلها ومعنى اليقين والشك والظن وحدود العلم البشري. وفي مجال الأخلاق جال جولات طيبة، فحاول أن يدرك الأسس التي تقوم عليها الأخلاق، بمحاجة دقيقة لسلوك الناس، وتحليل عميق لنفسياتهم؛ وفي مجال علم الجمال ترك أبحاثاً واسعة تناولت مفهوم الجمال ومظاهره في المرأة والشعر والخطابة واللغة. وبهذا

- أيضاً - ينطبق على الجاحظ المعنى الذي اتخذته الفلسفة في العصور الحديثة.

بيد أنه يمكن القول بأن اهتمام الجاحظ بموضوعات الفلسفة أو الكتابة فيها لا يكفيان لعده فيلسوفاً، إذ لا بد من توافر شرطين هما: أن تكون تلك الكتابات ذات قيمة، وأن تكون ذات طابع عقلاني وآيلة إلى الآراء التي تبحثها الفلسفة والفلسفة بشكل عام.

والحق أن الجاحظ تتطوى آثاره على قيمة فكرية ترجع إلى الشمول والأصلية. فلقد فكر في جميع المسائل التي تصادف الإنسان، وأصدر حولها العديد من الآراء المنهجية المسديدة. فنظريته المعرفية مميزة انفرد بها عن سائر المتكلمين وال فلاسفة، وقد أسمى في بحثه الجمالية بوضع أساس علم البيان في العربية، وقدم ملاحظات طريفة فيما يتصل بعلم نفس الحيوان وتأثير البيئة والتطور، وصاغ نظريته في الإمامة.

والطابع العقلي واضح القسمات في كتابات الجاحظ؛ فلقد كان معتزلياً يحكم العقل فيما يبحث، ويخلص الأشياء والأمور للنقد، و يجعل الشك طريقة

إلى اليقين، ولا يروى غليله إلى الحقيقة سوى العيان والخبر الصادق الذي يثق العقل به. ويرفض الكثير مما لا يقبله عقله من أساطير وخرافات تتعلق بالإنسان أو الحيوان أو الظواهر الطبيعية.

وتأسس على ما تقدم يكون للجاحظ فلسفة، أي أن له اتجاهات فكرية تتطرق من ميدان الفلسفة لا من ميدان الأدب. ذلك أن الجاحظ لم يكن أديباً فقط، كما عرف عنه، وإنما كان مفكراً أيضاً، حيث أطل على ميدان الفلسفة المختلفة من طبيعته وغيرها.

غير أن الباحثين قد أهملوا الناحية الفلسفية عند الجاحظ واهتموا بالجانب الأدبي فقط اعتقاداً منهم أنه أديب في الدرجة الأولى، حتى لذر أحدهم يقول: "إن الجاحظ كان أولاً وقبل كل شيء من الأدباء.. وأن تواليه، حتى ما كان منها خاصاً بالكلام، هي أدنى إلى الأدب منها إلى العلم"(١). ثم يضيف في تأكيد هذا الرأي: "وصفوة القول أن الجاحظ كان قوي الملاحظة أكثر منه مفكراً، وأديباً

(١) دلالة المعرفة الإسلامية، الترجمة العربية، ١٩٣٣، مجلد ٦ من

.٢٣٦ - ٢٣٨

أكثر منه فيلسوفاً، وعرف الجاحظ بالفطنة وسداد ملاحظاته في أغلب الأحيان، ومع ذلك فلا يمكن أن نسلك مؤلفاته إلا في كتب الأدبيات، أي كتب التهذيب وأدب النسنية والعلوم^(١).

وتتابع هذا الواحد كثير من الباحثين المحدثين في دراساتهم، حيث انصبت هذه الدراسات على الناحية الأدبية وأهملت الناحية الفلسفية. وهذا عكس ما تتبه إليه القدامي، حيث فطنوا إلى الناحية الفلسفية عند الجاحظ.

لكن إذا كان الجاحظ فيلسوفاً، فهل يمكن وصفه بالفيلسوف الطبيعي؟ الواقع أن الجاحظ قد اهتم بدراسة الطبيعة في مختلف ظواهرها من جماد ونبات وحيوان وإنسان. يظهر ذلك بوضوح في مؤلفاته المتعددة والمتنوعة، ككتاب الحيوان حيث يتحدث عن الجماد والحيوان، وكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعشاب حيث عرض لبعض النباتات، وكتاب العرب والموالى، وكتاب مفاخرة الجواري والغلمان، وفصل ما بين العدالة والحسد،

(١) المصدر السابق .

وغيرها حيث توسع في دراسة الإنسان .
غير أن دراسة الطبيعة وحدتها لا تكفي لإضفاء صفة الفيلسوف الطبيعي على المفكر، إذ لا بد من وجود نزعة فكرية عنده تقوم على تفسير الظواهر المختلفة بالاستناد إلى الطبيعة. وهذا ما نجده واضحا في تفكير الجاحظ؛ فهو ينظر إلى الأشياء نظرة واقعية علمية، مؤمناً بوجود قوانين تسير بموجبها وتفسرها.

والجاحظ لم يعن بما يجري في الطبيعة فحسب، وإنما عنى - أيضاً - بالبحث عن علة أولى واحدة للكون بأسره. وهو بهذا يختلف عن فريق من الفلاسفة الطبيعيين أطلق عليهم اسم الدهريين، لم يقروا بوجود الخالق، ولذا تحدث عنهم الجاحظ وهاجمهم بعنف شديد^(١).

كما خالف الجاحظ فلسفياً طبيعياً كبيراً هو أبو بكر الرazi (٢٥١ - ٣١١هـ) الذي نفر من علم الكلام، واهتم بالطب، ووثق به، وقال بوجود مبادئ أربعة عدا الله ضرورية لوجود العالم هي

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٧ من ١٢ .

النفس الكلية والهيوان الأولى والمكان والزمان المطلق. أما الجاحظ فعلى التقىض، أحب علم الكلام، ورفض أي مبدأ قديم يساوئ الله في قدمه(١).

وإذا أردنا أن نحدد مفهوم الطبيعة عند الجاحظ فإننا نجد أنه يستفاد من التعبيرات التي وردت فيها هذه الكلمة أن الطبيعة هي حالة الشيء الفطرية التي تشكل حقيقته أو خاصته المميزة كالتسخين بالنسبة للنار والتبريد بالنسبة للثلج، والإدراك بالنسبة للإنسان، وبشبته الجاحظ الطبيعة بالعادة التي يكتسبها المرء بالمران والتكرار. ومن هنا تغدو الطبيعة والعادة توأمين في نتائجهما أو أثراهما في حياة الإنسان(٢).

واستعمل الجاحظ الطبيعة بمعنى الاستعداد الفطري في الإنسان، أو ميله إلى عمل من الأعمال أو فن من الفنون، وهكذا قد يكون الرجل له طبيعة في التجارة وطبيعة في الكلام، وليس له طبيعة في

(١) أبو بكر الرازي: رسائل فلسفية، دار الأفاق، بيروت ١٩٧٧ ص ١٩٥.

(٢) الجاحظ: البيان والتفين ج ٤ ص ٩٩.

الفلاحة^(١)). كما وردت كلمة طبيعة مرادفة للطبع وهو السجية التي تولد مع صاحبها ولا تكتسب اكتسابا^(٢).

ولعل اهتمام الجاحظ بالطبيعة ووصفه لأفاعيلها هو الذي جعل واحداً مثل "دى بور" يُعده فيلسوفاً طبيعياً، حيث يقول: "كان الجاحظ فيلسوفاً طبيعياً وأديباً ظريفاً، وعندَه أن العالم الحق يجب أن يضم إلى دراسة علم الكلام دراسة العلم الطبيعي وهو يصف في كل شيء أفاعيل الطبيعة، ولكنه يشير إلى ما في هذه الأفاعيل من أثر خالق الكون"^(٣).

والحق أن إشارة الجاحظ إلى ما في أفاعيل الطبيعة من أثر خالق الكون لا يضرير فلسفته الطبيعية، ولا ينقص من قيمتها، لأنَّه نظر إلى الطبيعة نظرة موضوعية. فهي وإن كانت في البدء

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ من ١٠ - ١١.

(٢) قلن لها البركات البغدادي: المعتبر في الحكمة، حيدر آباد الدكن، طبعة الأولى ١٣٥٨ هـ ج ٢ من ٤ - ٥.

(٣) دى بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٥٤ من ٨٨.

من صنع الله، إلا أنها في الوقت نفسه تسير بموجب قوانين محددة تسمح بدراستها دراسة علمية مستقلة؛ فالله سبحانه وتعالى هو واسع القوانين ومنها قانون السببية: "إن الفروع لا محالة راجعة إلى أصولها، والأعجاز لاحقة لتصورها، والموالى تبع لأوليائها، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة، ومنفردة بالمضادة، وبعضها على بعض، كالغيث على السحاب، والسحاب على الماء والرطوبة، وكالحب على الزرع والزرع على الحب، والدجاجة على البيضة والبيضة على الدجاجة، والانسان على الانسان" (١).

كما أنه لا يقل من أهمية فلسفة الجاحظ الطبيعية قول أحد المستشرقين: "إن الجاحظ كان عالماً بالطبيعة والانسان، ولكنه لم يقصد في كتبه وضع قواعد هذين العلمين، إنما كان همه إشارة اهتمام القارئ بهما، وذلك بتحبيبهما إليه" (٢).

صحيح أن الجاحظ لم يضع كتاباً يتناول أصول العلم الطبيعي وقواعده، ولكنه طبقها إلى حد ما في

(١) الجاحظ: كتاب القيان، ضمن رسائل الجاحظ ج ٢ ص ١٤٦.

(٢) دلرة المعرفة الإسلامية، ج ٦ ص ٢٣٣.

مؤلفاته وأوضاع معالمها. ثم إنه لم يكن همه إشارة اهتمام القارئ بهذا العلم فحسب، بل كان يريد – شأنه في ذلك شأن كل عالم ومحرر – أن يقدم لبني جلدته آراءه ونتيجة بحثه ودراساته .

والواقع أن الجاحظ لم يكن أول من اهتم بالطبيعة، وإنما وجدت بذور هذه الفلسفة لدى اليونان، وعرض لها كثيرون من معاصرى الجاحظ من أمثال لبى الهنيل العلaf، والنظام، وثامة بن أشرس، وبشر بن المعتمر، غير أن الجاحظ قد بلغ بها نهاية أبعد. ففي حين قال هؤلاء المتكلمون الاعتزاليون بالطبع ليبيروا أن أفعال الإنسان من صنعه وليس من صنع الله، نجد الجاحظ يتخذ من الطبيعة غاية وليس وسيلة، فيجعلها موضوعاً للدرس والتأمل في محاولة منه لسر أغوارها واكتشاف قوانينها .

لقد قسم الجاحظ العالم قسمين كبيرين هما: الجماد والنامي (١)، وقسم النامي إلى نبات وحيوان، وأدخل الإنسان في قسم الحيوان (٢). أما الجماد أو غير النامي كما يفضل تسميته فهو يرادف الموات غالباً .

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٧ .

وهو لا يوافق الفلسفه في قولهم بالأفلак. إنهم لا يسمونها جماداً أو مواتاً، لاتصافها بالحركة التلقائيه وتدبر الحياة على الأرض. وهو يشير بذلك إلى فلسفه اليونان كارسطو وأفلاطون ومن اقتفي أثرهم من فلسفه الاسلام كالكندي معاصر الجاحظ الذين ذهبوا إلى أن الأفلالك تستمتع بالحياة والحركة وتأثر في شئون الكائنات على سطح الأرض.

يرفض الجاحظ الأخذ بهذا الرأي ويقول إن الأفلالك والنجوم أجسام غير نامية، ويؤيد رأيه بحجج عديدة، منها أن حركة الأفلالك التلقائيه لا تكفي لإخراجها من قسم الجمادات؛ ومنها أن جميع الناس لا يوافقون الحكماء على مذهبهم، بل إن معظم الأمم تختلف عنهم في اعتقادهم؛ ومنها أن هؤلاء الحكماء مقصرون في دراسة الجمادات .

ومن هنا نجد الجاحظ قد نجا من الوقوع في الخطأ الذي ارتكبه المفكرون اليونان والإسلاميون وهو الاعتقاد بأن الأفلالك السماوية تتدرج في سلسلة متواصلة ويتمتع كل منها بعقل ونفس، ويؤثر كل منها في الآخر، وهي بالتالي تؤثر في الأرض وما عليها من كائنات بحيث تستمد هذه الكائنات الأرضية

أسباب وجودها من تلك الأفلاك^(١).
وخلاله القول أن الفلسفة الطبيعية ترتكز عند
الجاحظ على المبادئ التالية:

١ - العناية بدراسة ما في الطبيعة من ظواهر
كثيرة شملت تقريراً جميع الكائنات من جمادات
وأحياء .

٢ - اتخاذ آثار الأشياء أساساً للبحث، للاعتقاد
بأن معرفة ماهيات الأشياء لا تتسنى إلا بمعرفة ما
يصدر عنها من آثار .

٣ - أن الجاحظ لندفع إلى أبحاثه الطبيعية مسوقة
بنزعته العلمية وإيمانه الديني العميق .

٤ - أن الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ ذات طابع
خاص يميزها عن المذاهب الطبيعية التي عرفها
تاريخ الفلسفة. إذ إن نظرية الجاحظ إلى الطبيعة
تختلف عن نظرات فيثاغورس وديموقريطس وأرسطو
قديماً، كما تختلف عن نظرات دارون وسبنسر حديثاً.

٥ - لا ينطبق على الجاحظ المعنى الحديث
للفلسفة الطبيعية القائل بأنه لا يوجد شيء خارج

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٦ .

الطبيعة، أى الذى ينفى وجود القوى الميتافيزيقية.
فالجاحظ يقول بوجود خالق للطبيعة ما زال
يرعاها وتمثل فيها حكمته وهو الله تعالى. ولم
يتصور الكائنات الطبيعية أعدادا كفيشا غورس، ولا
مجموعة نرات تتحرك دون غاية أو خالق
كديموقريطس، ولم يقل إن الله لا يعلم بما يجري في
الطبيعة كارسطو، ولم يفهم التطور على أساس
الانتخاب الطبيعي مثل دارون وسبنسر وغيرهما .

الفصل الثالث

الجهاد (المواطن)

أ - معنى الجماد:

الجماد عند الجاحظ هو كل ما ليس بنام. وهو يعترف بأن هذا التحديد غير كاف لأنّه يعتمد على المثلب، ويعزو ذلك إلى تقصير الحكماء في وضع أسماء للجمادات، ولهذا فهو ينتهي في تبيين معنى الجماد إلى حيث انتهوا من غير إضافة شيء جديد.

"وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة أن يقال: نام وغير نام. ولو كان الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنام أسمًا كما وضعوا للنامي أسمًا لاتبعنا أثرهم، وإنما ننتهي إلى حيث انتهوا"(١).

ويبدل الجماد في الغالب على الموات؛ والموات هو كل ما يخلو من الحياة كالأرض، أما الماء والنار والهواء فإنها لا تسمى جماداً ولا مواتاً ولا حيواناً، وإن كانت خالية من النماء والحس(٢). ولعل السبب في ذلك هو اعتبار الماء والتربة والنار والهواء عناصر تدخل في تركيب الأجسام وليس أجساماً تدخل في التقسيم الذي يتحدث عنه الجاحظ.

(١) لجاحظ: الحيوان ج ١ من ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ج ١ من ٢٧ .

ويعرف الجاحظ بأنه لم يبتدع فكرة العناصر هذه، فقد سبقه إليها حكماء الدهرية، ويعنى بهم فلاسفة اليونان. يقول الجاحظ: "ومنهم (أى من الدهرية) من زعم أن هذا العالم من أربعة أركان: من أرض وهواء وماء ونار، وجعلوا الحر والبرد والبلة أعراضًا في هذه الجواهر" (١).

ب - الجزء الذي لا يتجزأ:

يتصل بالحديث عن الجماد وتركيب الأجسام عند الجاحظ الإشارة إلى نظرية الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ أو الذرة؛ تلك النظرية التي تسبّب إلى ديموقريطس الفيلسوف اليوناني. وهذه النظرية تذهب إلى أن الأجسام تتركب من أجزاء متناهية في الصغر لا يمكن أن تتجزأ. ويقول "بيرترل" إن المسلمين قد تلقوا هذه النظرية عن الغنوصية، عندما ترجمت المؤلفات اليونانية إلى اللغة العربية في مطلع العصر العباسي (٢).

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٤٠، ج ١ ص ٢٧.

(٢) من. بيونوس ويرترل: مذهب الذرة عند المسلمين، ترجمة محمد عبد الهادي لبوردة، القاهرة ١٩٤٦ ص ١٤٠.

وأول قائل بمذهب الذرة — من المسلمين — هو أبو الهنيل العلaf من متكلمي المعتزلة^(١). وهذا المذهب جزء من صميم مذهب الأشاعرة، كما يقول "س. بيتنيس"، فإن المخلوقات عند الأشاعرة تقسم إلى جواهر أفراد، سواء كانت أجساماً أم أعراض، أم مكاناً أم زماناً. وكل حادث يقع في الزمان، فهو ينقسم إلى أجزاء منفصل بعضها عن بعض تمام الانفصال، ولا يربط بينها إلا إرادة الله عز وجل. والأعراض عندهم لا تبقى زمانين، أما الأجسام فهي تبقى بأن تخلق في كل وقت^(٢).

وبالرغم من أن كلمة "ذرة" منكورة في القرآن الكريم إلا أن بعض الباحثين يرجعون استعمالها إلى تأثر المسلمين باليونانيين والهنود.

على أية حال، بعد القول بأن الأجسام تتالف من نرات الفصل الأول من فصول المذهب المادي

(١) الأشعري: مقالات المسلمين، استانبول ١٩٣٠ ج ٢ ص ٣٤.

(٢) بيتنيس وبيترز: مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهنود ص ٢.

أو المذهب الآلى، عند بعض الباحثين، وإن كان القول به لا يحتم الإلحاد، بل يحتم الاعتقاد بوجود خالق للطبيعة.

والحق أن القول بالذرة أو الجوهر الفرد يرجع – كما ذكرنا – إلى الفيلسوف اليونانى "ديموقريطس" الذى اعتبر الماء والتراب والنار والهواء فروعاً للمادة البختة المجردة من كل تعين، الشبيهة بذلك التى نتصورها فى العلم الرياضى حين نفكر فى النقطة والخط والجسم، أى أنها امتداد فحسب، وارتدى أن هذا الامتداد مؤلف من أجزاء غایة فى الصغر حتى إنها لا تدرك بالحواس، ولا تقسم إلى أصغر منها، تتحرك فى الفضاء وتتقابل على أنحاء شئ لا تحصى، فتأتى فى مجتمع هى الأجسام المنظورة الملموسة، وتفترق بفعل الحركة أيضاً، فتحل الأجسام لي تكون غيرها، واختلاف الأجسام فى خصائصها يرجع إلى اختلاف الذرات المؤلفة لها،

عدها وشكلها ومقداراً وترتيبها، فالجسم الطبيعي في هذا التصور مثله كمثل الآلة الصناعية، والمادة هنا مكتفية بنفسها، مستغنّة عن خالق يوجدها ويطبعها بقوانينها، بل عن صانع يصور مادة مستقلة عنه سابقة على تصويره الجزيئات وتنظيمها.

هذا هو أصل مذهب الذرة أو نظرية الجوهر الفرد الذي اصطنعه متكلمو الإسلام، ومن هنا نعته بعض الباحثين بأنه مذهب يؤدي إلى الإلحاد^(١) بينما نعته بعضهم الآخر بأنه مذهب لا يحتم الإلحاد^(٢).

غير أنني أرى أنه لا يمكن القول بأن هذا المذهب يحتم الإلحاد إلا إذا قلنا إن هذه السذرات هي التي تحرك نفسها، وتحجّم وتفترق من تلقاء نفسها، بالمصادفة، وأنها مكتفية بنفسها، ومستغنّة عن خالق

(١) د. محمود قاسم: مقدمة تحقيق الكشف عن مناهج الأئمة لابن رشد - القاهرة ١٩٦٤، ص ١٢٠.

(٢) يوسف كرم: الطبيعة وما بعد الطبيعة، طبعة ثالثة - القاهرة، من ١٢

يوجهها، ويجمع شتاتها، ولا سيما أن العلم الحديث أثبت أن الذرات هي التي تكون الأجسام وأنها تتجزأ. والحق أن هناك فروقاً دقيقة بين لب النظرية الذرية القديمة ونظرية علماء الكلام المسلمين، فالأولى منها ذات طابع مادي على الإطلاق، إذ هي تجعل الأحداث الطبيعية متوقفة على تصادم الذرات وسبحها ودورانها في دوامة مستمرة كالنبع الجياش في وسط البحر مع خضوعها في الوقت نفسه لقانون طبيعي لا يختلف؛ أما عند المتكلمين فإن الذرات دليل على قدرة الله المطلقة الذي يدير - في كل حال - هذه الذرات وفق م Hispan إرادته. يضاف إلى هذا أن عدد الذرات لا يتناهى عند فلاسفة الذرة من القدماء ومن تبعهم، كما كانت الذرات أكثر انفصالاً بعضها عن بعض بوساطة الفراغ؛ أما عند متكلمي الإسلام فعدد الذرات متاح يضبطه الله سبحانه ويدبره، كما أنهم يتجنبون حتى الحديث عن الفراغ.

وزيادة على ما تقدم كانت النزارات في نظر علماء الإغريق أجساما، جزيئات من المادة في غاية الدقة، غير قابلة للانقسام إلى أصغر منها؛ أما عند متكلمي الإسلام فليست النزارات أجساما ولا أجراما. فالجسم عند العرب يتكون من عدد معلوم من النزارات (١).

يضاف إلى هذا - أيضاً - فرق أساسى بين مذهب الجوهر الفرد عند متكلمى الإسلام، ومذهب "ديموقريطس" هو أن هذا الأخير يرى أن المادة كما للجواهر الأفراد التي تتالف منها المادة خصائص أساسية معينة تكون ماهيتها، وهي الصفات الأولية، بالاصطلاح الحديث؛ أما عند متكلمى الإسلام فإن الأعراض، باعتبار أنها جنس من الموجودات على حدة، تختلف عن الجواهر المجردة من جميع الصفات حتى الأولية منها، ويمكن أن تقسم

(١) الدوميلى: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الترجمة العربية، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

الأعراض - عند المتكلمين - في حل كل مشكلة
شائكة مقام الصور والكيفيات عند الذين أخذوا
بمذهب أرسطو فيما بعد (١).

هذا وقد ارتضى القول بالذرة أو نظرية
الجوهر الفرد غالبية المتكلمين من الجبرية
والمعتزلة، وجميع الأشاعرة والشهرستاني، ونفاه
فلاسفة الإسلام والنظام والجاحظ وأبن حزم (٢).

لقد أيدت الجبرية نظرية الجزء الذي لا يتجزأ
بدافع كلامي وليس نتيجة لبحث فيزيقي، ذلك لأنهم
وجدوا فيها سندًا لمذهبهم القائل أنه لا فاعل في
الطبيعة إلا الله، فإذا كانت الأجسام تترکب من
أجزاء صغيرة لا يتجزأ فإنها تحتاج إلى قوة تربط
فيما بينها باستمرار، وهي الله عز وجل، والله في

(١) بيتيس: مذهب الذرة عن المسلمين ص ٨.

(٢) د. يحيى هريدى: محاضرات فى الفلسفة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٤٠.

رأيهم يخلق الأجسام ويفتيها باستمرار، بينما أيدوها
سائر المعتزلة أو غالبيتهم تفسيراً للأية الكريمة
الثالثة: **﴿وَاحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدِّاً﴾**.

أما النظام والجاحظ فقد أنكرا نظرية الجزء
الذى لا يتجزأ، وقالا إن الأجسام يمكن أن تقسم إلى
ما لا نهاية له من الأجزاء الصغيرة، وليس من جزء
إلا وله أجزاء أصغر منه. ويظهر أنها انساقا إلى
هذه النظرية بداعج جدل رياضى، أو لعلهما قد تأثرا
ببعض الفلاسفة اليونانيين كالرواقيين الذين خالفوا
“يموريطس”， وقالوا إن المادة تتجزء بالعقل إلى
مala نهاية. ولكنهما نقضا ركتنا قويما استند إليه
الجبرية في تأييد عقidiتهم، ونصرًا مذهبهما القائل بأن
الله تعالى لا يتدخل في الجزيئات، وأن أفعاله
الطبيعية تحدث تلقائيا بموجب قوانين الكمون والتوليد
وسواها، وأن أفعال الإنسان تنتج عن إرادته وليس
هو مكرها عليها، وليس الله هو الذي يكرهه على

الإتيان بها.

لقد انتقد الجاحظ نظرية الجزء الذي لا يتجزأ، وقال إن أصحابها يقعون في التناقض عندما يزعمون أن "أقل الأجسام الذي تركيبه من ثمانية أجزاء لا تتجزأ أو ستة أجزاء لا تتجزأ" يستحيل جسما على طول العالم وعرضه وعمقه. فإذا لو وجدناه كذلك لم نجد بُدّا من أن نقول: إنا لو رفعنا من أوهامنا من ذلك شيئا من الجميع، فإذا كان مقدار ذلك الشبر جزءا واحدا فقد وجدناه جسما أقل من ثمانية أجزاء ومن ستة أجزاء. وهذا نقض الأصل، مع أن الشبر الذي رفعناه من أوهامنا فلابد إن كان جسما أن يكون من ستة أجزاء أو من ثمانية أجزاء. وهذا كله فاسد"(١). فيشير الجاحظ في هذا النص إلى ادعاء أصحاب الجزء الذي لا يتجزأ أن جزئين يجتمعان

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٥٥.

فيولفان الطول، أما تأليف جسم ذي أبعاد ثلاثة: عرض وطول وعمق فيحتاج إلى ستة أجزاء أو ثمانية أجزاء لا يتجزأ(١).

ولقد تعرض النظام وأصحابه لنقد قوى من المعتزلة والجبرية على السواء بسبب قولهم بنفي الجزء الذي لا يتجزأ. فقد قال خصوّمه إن مذهبه مستحيل، لأنه إذا قلنا إن الجسم يتجزأ إلى ما لا نهاية فمعنى ذلك أنه يستحيل قطع أي مسافة من المسافات. فمثلاً إذا قطعت نملة صغيرة صخرة تكون قد قطعت ما لا نهاية له لأن هذه الصخرة تقبل القسمة إلى ما لا نهاية له، وهذا محل غير أن النظام قد وجد مخرجاً لهذه المشكلة بأن قال بالطفرة، أي أن النملة تخطى بعض أجزاء الصخرة(٢).

ويورد الجاحظ مثلاً آخر غير هذا المثل يوضح معنى الطفرة عند النظام. ففي معرض رده

(١) الأشمرى: مقالات الإسلاميين ج: ١ ص ٦.

(٢) الشهري: العلل والنحل ج ١، ص ٥٥ - ٥٦.

على منكري الكمون يقول إن في العود ناراً وبرداً.
 وعند الاحتراق ينجدب البرد إلى الماء وتظهر النار.
 ويرد خصوصه قائلين: "لقد رأينا النار تخرج وتؤثر
 بينما لم نر للبرد أثراً". أجاب النظام بأن عودة البرد
 إلى الماء الذي هو أصله تم بالطفرة. ويشرح
 الجاحظ هذا المعنى بقوله: "... ثم لم ينقطع ذلك البرد
 إلى برد الأرض الذي كالقرص له إلا بالطفرة
 والتخليف لا بالمرور على الأماكن والمحاذاة. وقام
 برد الماء منه مقام قرص الشمس من الضياء الذي
 يدخل البيت للخلق الذي يكون فيه، فإذا سد فم السد
 ينقطع إلى قرصه وأصل جوهره"(١).

إن النظام هو الذي ابتدع نظرية الطفرة، أما
 نظرية الجزء الذي لا يتجزأ أبداً فلم يبتدعها وإنما
 هي مأخوذة عن فلاسفة اليونان. يقول الشهريستاني:
 "إن النظام وافق الفلسفة في نفي الجزء الذي لا

(١) الجاحظ: الحيوان ج. ٥، من ١٩ - ٢٠.

يتجزأ وأحدث القول بالطفرة^(١). ولكنه لم يصرح باسماء هؤلاء الفلاسفة، ولعله يقصد بهم الفلاسفة اليونان الذين عارضوا "ديموقريطس" ونظريته في الذرة، ومنهم الرواقيون وزينون الإيلي القائلون بأن المادة يمكن تجزئتها إلى مالا نهاية، ومنهم أفلاطون وأرسطو وأنبادوقيس وغيرهم الذين ذهبوا إلى أن الأجسام تتكون من أربعة أركان هي النار والهواء والماء والتراب. وينسب الجاحظ إلى النظام أقوالا تؤيد هذا الرأي كقوله: "إن الغالب على العالم السفلي الأرض والماء، والغالب على العالم العلوي النار والهواء"^(٢). وكقوله: "إن الحطب عند انحلال أجزائه وتفرق أركانه التي بنى عليها ومجموعاته التي ركب منها وهي أربع: نار ودخان وماء ورماد .."^(٣).

ويزعم المستشرق "بريتزل" أن البحث في
الجزء الذي لا يتجزأ "حدث أول ما حدث عندما

(١) الشهرياني: العلل والنحل ج ١، ص ٥٥.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٥، ص ١٩.

(٣) المصدر السابق ج ٥، ص ١١.

ذهب النظام إلى أن الجسم يقبل الانقسام إلى غير
نهاية"(١).

والحق أن النظم ليس أول قائل بمذهب
الجوهر الفرد إنما أبو هنيـل العـلاف هو أول قائل به
كما قلنا سابقا.

هذا وقد أشار الجاحظ إلى أن مصطلح الجوهر
الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ كان شائعاً بين المتفقين
حتى إننا نجدـه قد ورد عند بعض الشعراء كابـي
نواس الذي يقول:

يا عـامـد القـلـبـ منـيـ هـلاـ تـذـكـرـتـ حـلـاـ
تـرـكـتـ منـيـ قـلـيلاـ منـ القـلـيلـ أـفـلاـ
يـكـادـ لـاـ يـتـجـزـأـ أـقـلـ فـيـ الـلـفـظـ مـنـ لـاـ(٢).
كـمـاـ إـنـاـ نـجـدـ الجـاحـظـ يـسـتـعـملـ مـصـطـلـحـ الـجـزـءـ
الـذـيـ لـاـ يـتـجـزـأـ فـيـ مـجـالـ التـدـرـ وـالـسـخـرـيـةـ عـلـىـ لـسـانـ

(١) بـينـيـسـ: مـذـهـبـ لـلـذـرـةـ عـنـدـ الـمـسـلـمـيـنـ، صـ ١٤ـ.

(٢) لـجـاحـظـ: الـبـيـانـ وـالـتـبـيـينـ جـ ١ـ صـ ٩٨ـ.

أحد المتندرين حيث يقول: "قال (أبو كعب): وأتانا
(موسى بن جناح) بأرزة، ولو شاء إنسان أن يعد حبها
لعده، لتفرقه وقلته. قال: فنثروا عليها لبكة من دبس
مقدار نصف أسيكراة، فوقيع ليلقتذ في فم قطعة —
وكنت إلى جنبه — فسمع صوتها حين مضغها،
فضرب يده على جنبي ثم قال: أجرش يا أبو كعب
أجرش. قلت: ويلك، أما تتقى الله! كيف أجرش
جزءا لا يتجزأ" (١).

الواقع أن هذا الخبر الطريف يدل على تهكم
الجاحظ وسخريته من نظرية الجزء الذي لا يتجزأ،
كما يدل على انتشار هذا المصطلح بين فئات
المجتمع. ويبدو هذا التهكم مرة أخرى عند الجاحظ
في رسالة التربيع والتدوير حيث يقول مخاطباً أحمد
ابن عبد الوهاب الذي يسخر منه: "فلا تزاحم البحار
بالجدائل، والأجسام بالأمراض، وما لا يتساهي

(١) الجاحظ: البخلاء ص ١٢٨.

بالجزء الذي لا يتجزأ^(١).

ولكن إذا كان الجسم يتربّك من عدّة عناصر أو أركان حسب بعض الآراء، أو من أجزاء لا تتجزأ حسب بعض الآراء الأخرى، فما العلاقة بين هذه العناصر أو الأجزاء داخل الجسم؟ الواقع أن أصحاب المذهب الأول يقولون إن هذه العناصر التي تكون الجسم توجّد متداخّلة فيما بينها، وهذا ما يسمى بنظرية المداخلة، بينما يقول أصحاب المذهب الذي يرى أن الأجزاء توجّد داخل الجسم متّجاورة، وهذا ما يسمى بنظرية المجاورة.

إن الجاحظ يشير إلى هذين المذهبين وهو يتكلّم عن النار وكمونها في الأجسام فيقول: "... نبدأ بالأخبار عنها وبذاتها (النار) وعن نفس جوهرها، وكيف القول في كمونها وظاهرها .. وعن كونها

(١) الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير ص ٧٢.

على المجاورة كان ذلك ألم على المداخلة .."(١).
 ويذهب الجاحظ إلى أن النار متداخلة في العود مع الماء والهواء والرماد، وليس متجمعة في قسم فيه بحيث تختل طرفا منه، بينما يختل الماء الطرف الآخر مثلا، وينحصر الهواء في الوسط، وإنما النار في جميع العود كامنة فيه وسائحة وهي أحد أخلاقه "والجزء الذي يرى منها في الطرف الأول غير الجزء الذي في الوسط، والجزء الذي في الوسط غير الجزء الذي في الطرف الآخر .."(٢).

هذا هو مذهب الجاحظ وأستاذه النظام، أما أصحاب الأعراض والجبرية والذريون فيرفضون نظرية المداخلة ويقولون إن "النار التي تراها أكثر من الخطب إنما هي ذلك الهواء المستحيل، وليس أنها إذا عدلت فقد انقطعت إلى شكل لها على

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٥.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٨١ - ٨٢.

وأتصلت إلى تلادها، ولا أن أجزاءها أيضاً تفرقت في الهواء، ولا أنها كانت كامنة في الحطب ومتداخلة فيه، فلما ظهرت انبسطت وانتشرت، وإنما اللهب هواء استحال ناراً، لأن الهواء قريب القرابة من النار والماء هو حجاز بينهما^(١)). وهكذا يشغل الهواء والنار والماء والرماد أماكن مستقلة في الحطب، وهي تتجاور دون أن تتدخل. فالنار تحتل حيزاً منه والهواء يحتل قسماً آخر والماء يحجز بينهما.

هذا، ويلاحظ "بيرترل" أن المتكلمين الذين لم يهتدوا إلى القول بالخلاء، ويرجع السبب في ذلك إلى أنهم لم يقصدوا إلى دراسة الطبيعة في حد ذاتها. يقول "بيرترل": "وكذلك لا نجد ذكراً لما يتصل بفكرة الجوهر الفرد بحكم الضرورة العقلية من القول بوجود الخلاء، وذلك رغم أن ما بحثه المتكلمون من

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١٥ - ١٦.

مسألة المعاشرة والمجاورة والتدخل بين الجواهر،
كما نجد ذلك في المقالات (يقصد مقالات المسلمين
لأشعرى)، كان يجب أن يؤدي مباشرة إلى فكرة
الخلاء .."(١).

ج - الجوهر والعرض:

الجوهر والعرض مقولتان يونانيتان نجدهما
في الفلسفة اليونانية وبخاصة لدى أرسطو، ومنها
انتقلنا إلى الفلسفة الإسلامية إثر حركة الترجمة التي
أدت إلى وضع التراث اليوناني في متناول أيدي
المسلمين.

لقد استعمل الجاحظ "الجوهر" بمعنى المعدن
حيث يقول: "الفلز: جوهر الأرض من الذهب
والفضة والنحاس والأنيق وغير ذلك" (٢).

كما استعمل الجاحظ كلمة "الجوهر" بمعنى

(١) بيته: مذهب النرة عند المسلمين ص ١٤١ .

(٢) الجاحظ: البريان والتبيين ج ١ من ٣١ والحيوان ج ١ ص ٦ .

الجسم حيث يقول: "الماء هو الجوهر القابل لجميع القوى"(١). واستعمله أيضاً بمعنى "الجنس" في قوله: "والجنس عين الجوهر وذاته"(٢).

وكما نعلم فإن أرسطو قد ميز بين نوعين من الجواهر هما: الجوهر الأول أو الأعيان المفردة، والجوهر الثاني أو النوع والجنس "فالجوهر الموصوف بأنه أول بالتحقيق والتقديم والتفضيل فهو الذي لا يقال على موضوع ما ولا هو في موضوع ما، ومثال ذلك فيها إنسان ما وفرس ما. فاما الموصوفة بأنها جواهر ثوان فهي الأنواع التي توجد فيها الجوهر الموصوفة بأنها أولى، ومع هذه الأنواع وهذه الأجناس أيضاً.."(٣).

أما العرض فهو خلاف الجوهر، وكان موضع خلاف شديد بين مفكري الإسلام. ويفهم من

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٨٩.

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٣١٩.

(٣) لرسبو: المنطق، تحقيق عبد الرحمن بدوى، القاهرة ١٩٤٨ ج ١ ص ٧.

كلام الجاحظ المنسوب إلى النظام أن كل ما يرى
ويشم ويلمس ويذاق جسم وبالتالي هو جوهر وأنه لا
يوجد عرض سوى الحركة^(١).

وعلى سبيل المثال بعد النظام النار التي في
الحطب والزيت الذي في السمسم والزيتون
جوهرين، وكذلك الحلاوة والمرارة والصفرة
والحمرة والخضراء، وباختصار جميع الطعوم
والروائح والألوان. ثم نراه ينتقد أصحاب الأعراض
الذين يقولون إن المرارة والحلابة عرضان، بينما
الزيت والخل جوهران، ونسمعه يقول كما يروى
الجاحظ عنه: "ولن زعم الزاعم أن الحلاوة والمرارة
عرضان، والزيت والخل جوهران، وإذا الزم من
قال ذلك في حلابة العسل وحموضة الخل وهما
طعمان، لزمه مثل ذلك في الوانهما، فيزعم أن سواد
السبع وبياض الثلوج وحمرة العصفر، وصفرة الذهب

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ٢ من ٣٨.

وخصوصية البقل إنما تحدث عند رؤية الإنسان، وإن كانت المعاينة وال مقابلة غير عاملتين في تلك الجوادر. فإذا قاس ذلك المتكلم في لون الجسم بعد طعمه، وفي طوله وعرضه وصورته بعد رائحته، وفي خفته وثقل وزنه كما قاس في رخاوته وصلابته، فقد دخل في باب الجهالات، وزعم أن القرفة ليس فيها ماء، وأن وجودها باللمس ثقيلة مركوزة، وإنما تخلق عند حل رباطها"(١).

وبينتقد "النظام" "أرسطو" لقوله بالأعراض إلى جانب الجوادر. إن أرسطو الذي يزعم أن الماء الممازج للأرض لم ينقلب أرضاً، وأن النار الممازجة للماء لم تقلب ماء، وكذلك ما كان من الماء في الحجر ومن النار في الأرض والهواء .. لم يصل إلى أن يزعم أن في الأرض عرضاً يحدث وبالأحرى أن يعجز عن تثبيت كون الماء والأرض

(١) الجاحظ: الحيوان ج٥ ص ٨ - ٩.

والنار عرضاً(١).

كما يشير الجاحظ إلى فئة من المتكلمين يسميهم أصحاب الأعراض، منهم ضرار بن عمرو وجهم بن صفوان. وإنما سموا بهذا الاسم لأنهم يقولون إنه لا يوجد في الأصل سوى أعراض، وأن الأجسام تتربّك من الأعراض، إنهم بذلك يخالفون النظام وأصحابه الذين قالوا بالعكس أنه لا يوجد سوى أجسام أو جواهر، ولم يعترفوا إلا بعرض واحد هو الحركة(٢).

ويظهر أن الجاحظ لا يوافق للنظام ولا أصحاب الأعراض. وإنما يقول بوجود الأجسام والأعراض. والعرض عنده هو كل ما ليس بجوهر، ولا يقوم بنفسه وإنما في الجوهر أو الجسم. والعرض من عمل الجسم، أما الجسم فلا يكون إلا من

(١) الجاحظ: الحيوان ج٥، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق ج٥ ص ١٠ - ١١.

جسم أو من مخترع ومبدع الأجسام وهو الله تعالى (١).
 هذه هي القضايا التي أثارها الجاحظ فيما يتعلق بالجماد، أما فيما يتعلق بالنبات فإننا نجد أن الجاحظ لم يتسع في دراسته كما توسع في الحديث عن الجماد والحيوان والإنسان؛ فلا نجد عنده – فيما يتعلق بالنبات – إلا حديثاً عابراً عن تصنيف النبات، حيث يقول: "ويقال إن جميع نبات الأرض على ثلاثة أصناف: نجم وشجر ويقطين، فما كان قائماً على ساق فهو نجم، وما كان منفرجاً ذا أخضان ومتشعجاً بأفستان فهو يقطين، وفي القرآن: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدُان﴾ (٢)" .
 المعروف عند علماء النبات أن النجم ما ليس قائماً على ساق، وأن الشجر هو ما قائم على ساق، أما اليقطين فهو ما له ساق ولكنه لا يقوم عليها نحو الدباء والقرع والبطيخ.

(١) الجاحظ: آثار الجاحظ، تحقيق عمر أبو النصر، بيروت ١٩٦٩ ص ٢٧٢.

(٢) الجاحظ: البرصان والمرجل .. ص ١٨٠.

والآن نبدأ في الحديث عن الحيوان حيث إن الجاحظ يقسم الكائنات إلى جماد ونام، والنامي إلى نبات وحيوان. وحيث أننا نجد الجاحظ قد توسع في الحيوان ولم يتسع في النبات فقد اكتفينا هنا بهذه الإشارة التي أوردها، وبعدها ننتقل إلى الحديث عن الحيوان، وهو حديث مفصل.

الفصل الرابع

الحيوان

أ - مصادر ثقافة الجاحظ في علم الحيوان:

يتركز كلام الجاحظ عن الحيوان في كتابه "الحيوان"، هذا الكتاب الضخم الذي يعد موسوعة علمية شاملة تناول فيها الجاحظ المعارف الطبيعية، والمسائل الفلسفية، وسياسة الأفراد الأقوام، ونزاع أهل الكلام وسائر الفرق والطوائف الدينية والمسائل الجغرافية مما يتعلق بخصائص البلدان وتأثير البيئة في الحيوان والإنسان والأشجار، والأجناس البشرية وتبنيتها، وبعض قضايا التاريخ، والطب والأمراض التي تعترى الإنسان والحيوان، وكثيراً من المفردات الطبيعية، سواء كانت نباتية أو حيوانية أو معدنية، وسائل الفقه والدين، وما يتعلق بذلك من آيات الكتاب الحكيم وحديث سيد المرسلين.

فمن أين استقى الجاحظ معارفه في علم الحيوان؟ وهل كان مبدعاً لهذا العلم أم كان في جانب منه مبدعاً وفي الآخر متبعاً؟

الواقع أن هناك جهودا سابقة على الجاحظ في دراسة الحيوان، ولعل اليونان وجهودهم في هذا الحقل العلمي كانت أسبق من الجاحظ حيث إنهم كانوا أصحاب دراسات واسعة في هذا المجال والدوا
كتبا خاصة بالحيوان "منها كتاب الحيوان لديمокراطيس ذكر فيه طبائعه ومنافعه، وكتاب الحيوان لأرسطو، تسع عشرة مقالة .. ولأرسطو أيضا كتاب في نعم الحيوان الغير الناطق" (١).

ولن كان البابليون والمصريون قد مسبقا اليونانيين في هذا العلم، إلا أن أرسطو (٣٨٤ - ٢٢٢ ق. م.) يعد أول عالم قام بجهود يذكر في علوم الحياة والفلسفة والسياسة وغيرها من العلوم الأخرى. ومن خلال دراسة آثاره نعرف أنه قد استخدم التجربة والاستنتاج دليلا حقيقا للمواضيع التي مارسها.

ومن دراسة آرائه يظهر أنه كان على قدر من المعرفة لا يستهان به في علم التشريح ووظائف

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون ج ١ ص ٤٥٦.

الأعضاء وتكوين الأجنة، وتاريخ حياة كثير من الحيوانات التي عرف نحو خمسين وأمائى نوع منها في بيئته، متبعاً غذاءها وتكاثرها وتركيبها.

وإذا تصفحنا كتب الجاحظ يظهر لنا أثر أرسطو في كثير من فكر الجاحظ وأسلوبه، وقد ذكر الجاحظ أرسطو في كثير من المواقع ونحوه بذكره، معتمداً عليه، أو ناقداً إياه.

على أية حال يظهر لنا من خلال قراءة كتاب الحيوان أن هناك مصادر متعددة، وينابيع مختلفة استقى الجاحظ منها معارفه في علم الحيوان هي: أولاً: القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف. وقد استخدم الجاحظ هذا المصدر للتدليل على قيمة الحيوان والحسنة، مهما صغر جرمها، وكذلك للتدليل على أن الحيوانات تحشر يوم القيمة، ولا استخراج الفتوى التي تتعلق بالحيوانات والحشرات أيضاً.

ثانياً: الأخبار العربية والشعر العربي والأمثال.
فالشعر العربي، وبخاصة البدوي منه، قد تحدث عن
الحيوان حديثاً طويلاً، تحدث عن الآنيس منه، ولم
يهمل الوحشى، بل أشرك بين هذا وذاك. ومعرفة
الأعراب للحيوان جيدة وينظر الجاحظ السبب فى
ذلك قائلاً: "وربما، بل كثيراً ما يبتلون بالنار
والملدب، واللدغ واللسع، والعض والأكل؛ فخرجت
بهم الحال إلى تعرف الجافى والجارح والقاتل، وحال
المجنى عليه، والمجروح والمقتول،... وكيف الداء
والدواء، لطول الحاجة، ولطول وقوع البصر، مع ما
يتوارثونه من .المعرفة بالداء والدواء"(١). ثم يبين
الجاحظ سبب اعتماده على الشعر العربي فيقول:
"وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من
الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٦ ص ٢٩.

ونحن قد وجدناه أو قريراً منه في أشعار العرب"(١) ..
التي كان عليها أكثر اعتماده.

ثالثاً: الخبرة الشخصية والثقافة التي تلقاها الجاحظ
من مجتمعه، وذلك الواسع الذي كان يدفعه إلى
السؤال من يتوسم فيه العلم، وكان الجاحظ بطبيعة
شعبياً، مع أنه كان مقررياً نافذ الكلمة عند الوزراء
والخلفاء، فهو قد جلس الملائكة مراراً، وسمع من
أحاديثهم، وكذلك صائدى العصافير وأصحاب
الطيور والحوائين والفيالين وغيرهم. وكان الجاحظ
صاحب تجربة شخصية، فكان إذا سمع بشيء
وساوره الشك في صحته يقوم بالتجربة بنفسه،
كتجربة السم لبعض الحيوان أو الأدوية وغيرها.

رابعاً: كتب الفرس والهنود؛ إلا أن آراء الهند
أكثرها يتعلق بالخيال، أما كتب الفرس فتتعلق
بالتقوية وأكثرها آراء زرادشت، والجاحظ يفند هذه
الأراء دائمًا.

(١) المصدر السابق ج ٢ من ٢٦٨.

خامساً: تلك العقلية الحجاجية التي ولدتها العقل المعتزلي متأثراً بعلم الكلام. وهذه الحجاجات الكلامية مبثوثة في الكتاب، وقد خصص الجاحظ الجزء الأول والثاني منه لهذا الحجاج، فنرى هناك قوله: "وقال صاحب الديك" و"قال صاحب الكلب" و"قال صاحب النعامة". وينظر الجاحظ في هذا الجدال محاسن كل حيوان ومساوئه، ومعلومات كثيرة عنه، وبلا شك ليس هناك اثنان متجادلان، فهو من كلام الجاحظ، ليدل بذلك على قدرته الكلامية وسعة علمه، فهو يقول في ذم الديك ومدح الكلب: "والديك لا يألف منزله ولا ربيعه، ولا ينمازع إلى دجاجته ولا طرقوته، وهو مع ذلك أبله لا يعرف أهل داره، ومبهوت لا يعرف وجه صاحبه.. والكلب على ما فيه يعرف وجه صاحبه.." (١) ويقول على لسان صاحب الديك يذم الكلب: "فهو سراق،

(١) المصدر: المسبق ج.٢، من ١٩٥ - ١٩٦.

وصاحب بيات، وهو نباش، وأكل لحوم الناس^(١)" ولعل الجاحظ كان يرمي بهذا النزاع وأمثاله إلى أقوام وطوائف بعيتها، وبخاصة أن الجاحظ له باع طویل في الحديث عن الشعوبية.

سادساً: كتاب الحيوان لأرسطو؛ وقد نقل الجاحظ عن أرسطو نصوصاً ليست من الكثرة بمكان، إذا قيست بما أخذة من العرب وأشعارهم وأخبارهم. غير أنه من الجدير بالذكر القول بأن الجاحظ قد سلك مع أرسطو مسلك الرأى المعتزلي الحر، فما قبله عقل الجاحظ أيداه بالأدلة، وما لم يقبله عقله ردده. والجاحظ بهذا لا يقبل الأمور بعلاقتها، فهو في بعض الأحيان يعتذر عن أرسطو لأنه ربما يكون المترجمون قد أخطأوا في النقل، أو أنهم لم يتوفروا الدقة في ترجمتهم" ولعل المترجم قد أساء في الأخبار عنه"^(٢).

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٤.

ويجدر بنا أن نقف في هذا الفصل وقفه متأنية
لنقارن بين أرسطو والجاحظ حتى ثبتت أصالة
الجاحظ في دراسته عن الحيوان.

ب - السبب في تأليف الجاحظ للحيوان:

يعد كتاب "الحيوان" أضخم كتب الجاحظ،
حيث يقع في سبعة أجزاء تزيد صفحاتها على ثلاثة
آلاف صفحة، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على
اهتمام الجاحظ بالحيوان اهتماما بالغا، فما الذي حمله
على تأليف هذا الكتاب الضخم، وعلى تحمل الجهد
الذي بذله في سبيل تصنيفه؟ لقد أشار الجاحظ مراراً
في ثواباً حديثه عن الحيوانات إلى أن حكمة الله
تنجلي في تكوينها وتشكل دليلاً قوياً على قدرة
الخالق سبحانه وعجيب إيداعه(١). غير أن توضيح
مثل هذه الفكرة لا يحتاج إلى تأليف كتاب بهذه
الضخامة، ولا سيما أن الجاحظ قد وضع مؤلفاً حول
هذا الموضوع عنوانه "الدلائل والاعتبار على الخلق

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ ٧ ، ص ٩ .

والتدبر". ألم فيه بمختلف جوانب الموضوع ونكر مختلف الأدلة على وجود الله تعالى وتبصره في خلقه، فلا حاجة إلى تأليف كتاب آخر حول الموضوع نفسه. ومن ناحية أخرى فإننا نجد الجاحظ يعلن أن كتابه هذا ليس بحثاً في الفلسفة والمذاهب الكلامية، ولذلك لن يثير سخط فرقه أو رضى فرقه أخرى، لأنه لا يتناول "إيجاب الوعد والوعيد فيعرض عليه المرجع"، ولا تفضيل على فينصب له العثماني، ولا هو في تصويب الحكمين فيتسخطه الخارجي، ولا هو في تقديم الاستطاعة فيعارضه من يخالف التقديم ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام (١)".

الواقع أننا نلاحظ من استعراض الكتب التي صنفها أساتذة الجاحظ ومعاصروه أن الحيوان كان الموضوع الأكثر جاذبية لأقلام المصنفين والعلماء فتناوله كل منهم بالبحث وصنف فيه كتاباً أو أكثر. ومن الطبيعي أن يتأثر الجاحظ بذلك الواقع فاتجه إلى

(١) المصدر السابق، ج٧، ص ٧.

معالجة هذا الموضوع الذي حظى باهتمام أبناء عصره من العلماء.

وهناك افتراض يرد على الذهن وهو أن يكون الجاحظ قد أقدم على تأليف هذا الكتاب معارضة لكتاب أرسطو في الحيوان. ومن المؤكد أن الجاحظ قد اطلع على ذلك الكتاب الذي نقله إلى العربية ابن البطريرق (٢٠٠هـ) ويضم تسع عشرة مقالة (١). ويريد هذا الافتراض كثرة رجوع الجاحظ إلى أرسطو، فقد ذكره مرات عديدة وأورد آرائه بصدق مسائل شتى، معبرا عنه بصاحب المنطق، وبذلك يعد أرسطو من أهم مصادره، بالإضافة إلى المصادر الأخرى التي ذكرناها سابقاً. غير أن الجاحظ لم يرض بأن يكون مقلداً لأرسطو أو ناقلاً عنه، وإنما أراد أن يكون له نداً ومنافساً يباريه في هذا الميدان ويجد في أن يسبقه ويتفوق عليه، لهذا

(١) لم يرجع الجاحظ إلى كتاب "جواجم كتاب لرساططا ليس في معرفة طبائع الحيوان" لثامسطيوس، ترجمة إسحق بن حنين، لأنّه لم يذكره. انظر: عبد الرحمن بدوى: شروح على لرساطو مدقودة في اليونانية ورسائل أخرى (دار المشرق - بيروت، ط١، ١٩٧٢م).

نراه ينتقده ويختلفه في كثير من المسائل، وفي
المنهج وفي الغاية.

ويجدر بنا قبل أن نقارن بين كتابي أرسطو
والجاحظ أن ناتي بوصف لبعض الحيوانات ذكرها
كل منها حتى نبين مدى تأثر الجاحظ بأرسطو
واطلاعه على كتابه.

ج - وصف بعض الحيوانات بين أرسطو والجاحظ:
ونقارن هنا بين بعض أنواع الحيوانات التي
ذكرها أرسطو كما جاءت في كتابه "طبع الحيوان"
وترجمه العالم العربي "ابن البطريق" والتي ذكرها
أيضاً أبو عثمان الجاحظ، في كتابه الحيوان، وندع
للقارئ المعاصر أن يقف ليتأمل ما جاء به علم
الحيوان الحديث، وأى الأقوال كانت أقرب إلى الواقع
والحقيقة العلمية فيما بين هذين العالمين: الاغريقي
والإسلامي.

١ - النمل:

أ - قول أرسطو فيه:

"وسائل أجناس النمل كثير النمل كثير العمل
والمكسب أكثر من جميع أصناف الحيوان المحرز

الجسد وأيضاً الدبر الكبير والصغير وجميع الأجناس الملائمة لهذه الذكورة. وعمل النمل ظاهر بين، إذ إن جميع النمل أبداً يسيراً في مسلك واحد، وأنه يكتنز طعامه وإذا كانت ليالٍ مقررة يعمل أيضاً^(١).

ب - قول الجاحظ:

"وقد علمنا أن الذرة (أى النمل) تدخل للشتاء في الصيف، وتتقدم في حال المهلة ولا تخسيع أوقات إمكان الحزم. ثم يبلغ من تقادها وحسن خبرها والنظر في عواقب أمرها، أنها تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء في الصيف، أن تعفن وتسوس، ويقبلها بطن الأرض فتخرجها إلى ظهرها لتبيسها وتعيد إليها جفونها، وليضربها النسيم وينفى عنها العفن والفساد. ثم ربما كان - بل يكون أكثر مكانها ندياً، وإن خافت أن تبتت نقرت موضع القطمير (أى شق التواة) من وسط الحبة، وتعلم أنها من ذلك

(١) لرسبو: طباع الحيوان، ترجمة ابن البطريق، ص ٤٢٦.

الموضع تبتدىء وتتپت وتتقلب، فهى تقلب الحب كله أنصافاً، فاما إذا كان الحب من حب الكزبرة فلقته أرباعاً، لأن أنصاف حب الكزبرة ينبع من بين جميع الحبوب. فهى على هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان حتى ربما كانت في ذلك أحذى من كثير من الناس. ولها مع لطافة شخصها وخفة وزنها، فى الشم والاسترواح (التشم)، ما ليس بشيء، وربما أكل الإنسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد، فتسقط من يده الواحدة أو صدر الواحدة، وليس يرى بقربه ذرة ولا له بالذر عهد في ذلك المنزل، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى ذلك الجراده فترومها وتحاول قلبها ونقلها وسحبها وجراها، فإذا أعجزتها بعد أن بلغت بها عذرا مضت إلى جحرها راجعة، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت، وخلفها صويمباتها كالخيط الأسود المعدود حتى يتعاون عليها فيحملنها. فأول ذلك صدق الشم

لما لا يشم الإنسان الجائع. ثم بعد الهمة والجراءة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة، وأكثر من مائة مرة. وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعف وزنه مراتاً غيرها. وعلى أنها لا ترضى بضعف الأضعاف، إلا بعد انقطاع الأنفاس^(١).

٢ - النحل:

أ - قول أرسطو فيه:

”وفي أعمال أصناف النحل وتدبيره لمعاشه اختلاف كثير. وإذا أصاب النحل خلية نقية نظيفة يبني فيها بيوتاً من الموم وإنما يأتي ذلك الموم من سائر الأزهار ومن أطراف الشجر ومن الخلاف وسائل الأصناف التي فيها رطوبة لزجة. وهو يبني أولاً بيوتاً معمولة من شمع، أعني بالبيوت: الثقب التي يأوي فيها النحل ثم يهوى البيوت التي يأوي

(١) الحافظ: الحيوان ج، ص ٥ - ٩.

إليها ملوك النحل، وذكوره النحل.. والنحلة الكريمة تكون صغيرة مستديرة الجسد مختلفة اللون. وتكون أيضاً نحلة أخرى مستطيلة الجسد شبيهة بالنحل الذكر. وتكون نحلة أخرى كبيرة عظيمة البطن. فاما النحلة الذكر فجثته أكبر من سائر جثث النحل غير أنه ليس له حمة، وهو كسل ردى الحركة. وبين النحل الذي يرعى في السهل وبين النحل الذي يرعى في الجبال اختلاف: فإن الذي يرعى في الفيافي والجبال أصغر وأكثر عملاً. إن النحل مرتب على كل حال من الأعمال، أعني أن بعض النحل يأتي برحيق الزهر، وببعضه يأتي بالماء؛ وببعضه ينقى ويصلح الموم؛ ومنه ما يسقى ماء إذا كان له فراغ. وليس يجلس النحل على جسد آخر ولا ينسو من أصناف الأطعمة، وليس يعمل النحل زماناً معروفاً ولا وقت الابتداء؛ وإنما يبدأ العمل إذا كان مخصوصاً الحال في أي زمان كان من السنة.. وإذا قطعت شيئاً

من الشهد القوم على تعادد النحل، يتذرون للنحل
 كفافها من العسل ليكون طعاما لها في الشتاء؛ فلن
 كان ذلك الطعام كفافا، سلم النحل الذي في الخلية..
 وإذا هلك شيء من النحل في داخل الخلايا، أخرجته
 الأحياء إلى خارج. وهذا الحيوان نقى نظيف جداً،
 أكثر من جميع الحيوان، ولذلك يلقى زبله وهو يطير
 مرارا شئ، لأنه منت.. والنحل يخرج ما كان منه
 بطلاً وما لا يقوى على العمل، وهو يقسم الأعمال
 كما قلنا فيما سلف، ومن النحل ما يسكت حتى تنهض
 واحدة وتطير مرة أو مرتين؛ فإذا سمعه سائر النحل
 طار كله معه ثم تعود أيضا وتصر أولاً وتفعل ذلك
 رويداً رويداً حتى تمر بها نحلة واحدة وتصر وكأنها
 تعلمها أنه قد بلغ وقت الموم، وتسكت بفتحه. وإنما
 يعرف خصب الخلية من قبل كثرة الدوى وكثرة
 حركة النحل عند خروجه ودخوله(١).

(١) لرسطو: طباع الحيوان، ص ٤٢٩ - ٤٤١.

ب - قول الجاحظ:

"والنحل تجتمع فتقسم الأعمال بينها، فبعضها يعمل الشمع، وبعضها يعمل العسل، وبعضها يبني البيوت، وبعضها يستقى الماء ويصبه في التقب، ويلطخه بالعسل. ومنه ما يذكر إلى العمل، ومن النحل ما يكفيه (يجمعه) حتى إذا نهضت واحدة منها طارت كلها. يقال: "بكر بكور اليغسوب"، يريد أمير النحل، لأنها تتبعه غدوة إلى عملها. ومنها ما ينقل العسل من أطراف الشجر، ومنها ما ينقل الشمع الذي تبني به. فلا تزال في عملها حتى إذا كان الليل آتت

إلي مأبهها (١)"

٣ - العنكيبوت:

أ - قول أرسطو فيه:

"وفي العنكيبوت جنس آخر حكيم جداً، دقيق الخلقة. فإنه ينسج أولاً، ويمد الشعر ناحية الحدود والأوتاد ثم يبتدىء من الوسط ويكون لذى السدى عظم صالح، ثم يعمل اللحمة ويهيئ موضع ما يصيد في مكان آخر، ويهيئ موضع الصيد في الوسط.

(١) الجاحظ : الحيوان ج٥، ص ٤١٦ - ٤١٨.

فإذا وقع عليه شيء وتحرك الوسط، يربط
 ويزداد النسج على ذلك الحيوان حتى يضعف. فإذا
 علم ضعفه، حمله وذهب به إلى خزانته. وإن كان
 جائعاً من ساعته، يمتص ما فيه من الرطوبة ويخليه..
 وإذا ولد العنكبوت، قوى من ساعته على النسج
 وذلك الذي ينسج به لا يخرج من داخل جوفه مثل
 فضله، كما قال ديمقراطيس، بل من خارج جسده،
 فإنه على جسده مثل اللحاء، وهو شبيه بما يبرز
 شعره وشوكه من الحيوان. والعنكبوت يلف وينسج
 نسجه على الحيوان الأعظم من الذباب أيضاً، فإنه
 ينسج على السام أثبرص الصغير ويربط فاه أولاً.
 وإذا فعل ذلك واحترز حينئذ يندو منه ويعضه
 ويمتص الرطوبة التي فيه" (١).

ب - قول الجاحظ:

" ومن العناكب جنس يصيد الذباب صيد
 الفهود وهو الذي يسمى "الليث"، وله ست عيون وإذا
 رأى الذباب لطى بالأرض (لمسه بها)، وسكن

(١) لرسبو: طباع الحيوان، من ٤٢٧ - ٤٢٨ .

أطراfe، وإذا وثب لم يخطئ. وهو من آفات الذban، ولا يصيد إلا ذban الناس. ومنها الأجناس طوال الأرجل، والواجدة منها إذا مشت على جلد الإنسان تبثر (ظهرت فيه بثور)، ويقال إن العنكبوت الطويلة الأرجل إنما اتخذت بيتها وأععدت فيه المصايد والحبائل والخيوط التي تلتف على ما يدخل بيتها من أصناف الذban وصغار الزنابير، لأنها حين علمت أنها لا بد لها من قوت وعرفت ضعف قوائمه، وأنها تعجز عما يقوى عليه الليث احتالت بذلك الحيل؛ ومنها جنس ردىء، مشنوء الصورة (البغيسن المكروه) غليظ الأرجل، كثيراً ما يكون في المكان الترب من الصناديق والقماطر والأسفلات" (١).

٤ - الحرباء:

أ - قول أرسسطو فيه:

"وأما الحيوان الذي يسمى باليونانية فماليون، فجميع جسده شبيه بجسد السام أبرص، فلما أضلاعه فطويلة تنتهي إلى قرب أسفل بطنه مثل أضلاع

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ٥ ص ٤١٢ - ٤١٦.

السمك. فاما وجهه فشبيه بوجه الحيوان الذى يقال له خوررو فيثيقوس: مركب من قرد وخنزير، وله ذنب طويل جداً، آخره دقىق يلتوى جداً مثل سير وجثته مرتفعة عن الأرض أكثر من السام أبرص وما يشبهه. وكل واحد من رجاليه مجزأ بجزئين، قياس بعضها إلى بعض شبيه بقياس إيهام الإنسان إلى سائر كفه، وكل واحد من تلك الأجزاء مجزأ بأصابع، وله أظفار، أعني مخالب شبيه بمخالب الطير المعطف الأظفار. وكل جسده خشن مثل جسد الجنون (أى مثل التمساح فى اليونانى). وكلتا عينيه غائرة عظيمة مستديرة يحدق بها، بها جلد شبيه بجلد جميع جسده. وليس يغطى عينيه بذلك الجلد البتة. وهو يحرك عينيه إلى كل ناحية بنوع مستدير. فاما تغيره فإنه يكون إذا نفخ جلده، وجلده ولونه يكون أيضاً إلى السواد ما هو، مثل لون الجنون، ويكون أيضاً باهتاً (أصفر) مثل لون السام أبرص، ويكون فيه سواد مبقع مثل السواد فى جلد الفهد^(١).

ب - قول الجاحظ:

"الحرباء دويبة أعظم من العظاء، أكبر ما

(١) أرسطو: طبائع الحيوان، ص ٧١ - ٧٣.

كان فرخاً، ثم يصغر، وإنما حياته الحر. فتراءه أبداً إذا بدت جونة، يعني الشمس قد لجأ بظهره إلى جذع (صغر جذع وهو ما عظم من أصول الشجر المقطع)، فإن رمضت الأرض ارتفع. ثم هو يقلب بوجهه أبداً مع الشمس حيث دارت حتى تغرب، إلا أن يخاف شيئاً، ثم نراه شابحاً بيديه (مدهماً)، كما رأيت من المصطوب. وكلما حميت عليه الشمس رأيت جلده قد يخضر (١).

٥ - **الحيات المائية:**

أ - قول أرسسطو فيها:

"وفي البحر أجناس حيات كثيرة مختلفة الألوان وليس تلوى في الأماكن العميقة المياه جداً، بل في الأماكن التي تقرب من البر. وليس شيء من أجناس الحيات أرجل" (٢).

ب - قول الجاحظ:

"والحيات المائية إما أن تكون برية أو جبلية، فاكتسحتها السيل واحتلتها في كثير من أصناف

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٢، ص ٣٦٣.

(٢) أرسسطو: طبائع الحيوان، ص ٨٠.

الحشرات والدواب والسباع، فتوالت تلك الحيات وتلاقيت هناك. وكيف دارت الأمور فإن العيات من أصل الطبيع مائية. وهي تعيش في الندى وفي الماء، وفي البر وفي البحر وفي الصخر وفي الرمل. ومن طباعها أن ترق وتلطف على شكلين: أحدهما لطول العمر، والأخر للبعد من الريف. وعلى حسب ذلك تعظم في المياه والغياض. وكل شيء في الماء مما يعيش السمك، مما أشبه العيات كالمبار ما (هي ضرب من السمك الشبيه بالحيات) والإنكليز (ضرب من حيات الماء) فإنها كلها على ضربين: فأخذهما من أولاد العيات انقلب مما عرض لها من طباع البلد والماء. والأخر من نسل سمك وحيات تلاقحت، إذ كان طباع السمك قريبا من طباع تلك العيات" (١).
واليآن نأتي إلى مقارنة بين كتابي أرسسطو والجاحظ بعد أن أتيينا بوصف لبعض أنواع الحيوانات عند كل منهما.

د - مقارنة بين كتابي أرسسطو والجاحظ:

١ - لقد حاول أرسسطو في مطبع كتابه أن

(١) الجاحظ: الحيوان، ج. ٤ ص ١٢٨.

يضع تصنيفاً للحيوانات، إلا أنه يجد صعوبة في ذلك. فهو يقسم الحيوانات تقسيماً غريباً، حيث يقسمها إلى قسمين: قسم فيه دم، وقسم ليس فيه دم. ولكنه لا ينقيض بهذا التقسيم، ويحاول أن يلتمس تصنيفاً آخر يعتمد فيه على تببير المعاش والأفعال والغذاء للحيوان. وعلى هذا الأساس يقسم الحيوانات إلى مائية وبرية، وإلى طيارة وزحافة ومشاءة، كما أنه يقسمها إلى فئتين: فئة تعيش في جماعات، وأخرى تعيش منفردة، وإلى نوع يأكل الحبوب، ونوع يأكل الكل، وإلى ما يتغذى مأوى وما لا يتغذى مأوى وإلى حيوانات أنيسة تعيش مع الإنسان وحيوانات وحشية(١). وإذا كان أرسطو قد أخفق إلى حد كبير في تصنيفه للحيوانات فإننا نجد الجاحظ أكثر توفيقاً من أرسطو. فعند النظر إلى ما وصل إليه الجاحظ في مجال التصنيف يتضح للباحث أن هذا العالم قد سبق كل من حاول تصنیف الحيوان بصورة أقرب إلى

(١) أرسطو: طبائع الحيوان، ترجمة يوحنا بن بطريق، تحقيق عبد الرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧م، ص ٦ - ١٦ ويضم الكتاب المقالات العشر الأولى.

التصنيف العلمي الصحيح والذى أسنده الأوروبيون
إلى العالم السويدى كارل لينوس.

فالجاحظ يقسم الحيوانات تقسيمات أكثر دقة
وتفصيلا؛ فهو يقسمها إلى أربعة أقسام: قسم يمشى،
وقسم يطير، وقسم يسبح، وقسم يزحف على بطنه.
والنوع الذى يمشى ينقسم إلى أربعة أقسام: ناس
وبهائم وسباع وحشرات. والنوع الذى يطير ينقسم
إلى ثلاثة أقسام: سبع وبهيمة وهمج. والسبع من
الطير ما يأكل اللحم خالصا، والبهيمة منه تأكل الحب
خالصا، أما الهمج فليس من الطير ولكنه يطير. ثم
يقسم الجاحظ الحيوان إلى فصيح وأعجم، والفصيح
هو الإنسان والأعجم كل ذى صوت لا يفهم إرادته
إلا ما كان من جنسه.

وعند تقسيم الطيور يقارن الجاحظ بين
مختلف الحيوانات التى تطير؛ فليس عنده كل ما
امتلك جناحا أو طار فهو من الطير، وهذا كلام
علمى له قيمة ويعطى دلالة على اتساع تفكير
الجاحظ . كذلك فى الحيوانات البحرية، فليس كل
حيوان يعيش فى البحر من الأسماك، وإنما هناك
العديد من الكائنات التى تختلف اختلافا كبيرا من

حيث الشكل والموضع التصنيفي والمعيشة والسلوك (١).

ومن الدراسات العلمية التي تفوق بها الجاحظ على أرسطو وأبدع فيها أيمًا إبداع تلك الملاحظات القيمة عن هجرة الطيور والأسماك؛ وهو بذلك قد ضرب مثالاً رائعاً على مدى عمق فكره الذي استمدّه من حضارة العرب وال المسلمين العربية؛ وعن ذلك يقول الدكتور محمد يحيى الهاشمي: "يحدثنا الجاحظ في كتاب الحيوان عن الحمام الزاجل وعن كيفية رجوعه إلى وطنه، وقد رأى في هذا الأمر عجباً، ذاكراً لنا محاورة جرت بين أبي إسحق وبين مثنى بن زهير يقول الأخير إنه يبلغ كرم الحمام ووفاؤه وثبات عهده وحنينه إلى أهله أنه ربما قضى الطائر دهراً يعد أن طار منه زمناً طويلاً، فمتنى نبت جناحه عاد إليه، وكلما زهد فيه كان إليه أرغب. ويتعلق الجاحظ على هذه القصة سائلاً: هل الطير يحن إلى صاحبه أم إلى عشه الذي درج منه" (٢).

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ١، ص ٢٦ - ٣٢.

(٢) د. محمد يحيى الهاشمي: تحليل رأى الجاحظ في الطيور المهاجرة، مجلة الثقافة العدد ٢٨٠ السنة السادسة، القاهرة، ١٩٤٤، ص ٤٤٥.

ويقرر الجاحظ أن الباущ على رجوع الطير
الختين إلى الوطن، ويستدل على ذلك بالطير
المهاجرة "التي خرجت تقطع الصحاري والبراري
والجزائر والغياض والبحار حتى تصير إلينا في كل
عام. فإن قلت إنها ليست تخرج إلينا على سمت ولا
على هداية ولا دلالة ولا على أمارة وعلامة، وإنما
هربت من الثلوج والبرد الشديد، وعلمت أنها تحتاج
إلى الطعم، وأن الثلوج قد أبعض ذلك العالم فخرجت
هاربة، فلا تزال في هروبها إلى أن تصادف أرضا
خصباً ودفناً فتقيم عند أدنى ما تجد، فما تقول عند
رجوعها ومعرفتها بانحسار الثلوج عن بلادها قد
اهتدت طريق الرجوع؟! وعلوم عند أهل تلك
الأطراف وعند أصحاب التجارب وعند القائلين أن
طير كل جهة إذا قطعت رجعت إلى بلادها وجبالها
وأوكارها وإلى غياضها وأعشتها... ثم لا يكون
اهتداؤها على تمرين وتوطين ولا عن تدريب
وتجريب، ولم تلق بالتعليم ولم تثبت بالتدبير
والنقويم".

فالجاحظ أمام لغز معقد لم يتمكن العلم
الحديث من حلّه أيضاً. وقد مضى على قول الجاحظ

أكثر من أحد عشر قرنا وهو لا يزال لغزاً معقداً.
إن الجاحظ فرق بين الطيور المهاجرة التي
تركت أوطانها ثم تعود إليها من غير سابق تمرير
ومعرفة وبين الحمام الراجل الذي يتعلم ذلك، وهو
كأنه يريد أن يدل على أن الطيور تشبه البشر في
المعرفة، حيث إن هناك معرفتين هما المعرفة
الفطرية والمعرفة المكتسبة^(١).

ويقارن الجاحظ هجرة الأسماك بالطيور
المهاجرة فيقول: "وأعجب من جميع قواطع الطير
قواطع السمك الأشبور والجران والبيز، فإن هذه
الأنواع تأتي دجلة البصرة من أقصى البحار،
تستعدب الماء في ذلك الإبان كأنها تتحمص بحلوة
الماء وعذوبته بعد ملوحة البحر.. ونحن بالبصرة
نعرف الأشهر التي يقبل إلينا فيها الأشبور والجران
وأصناف السمك وهي تقبل مرتين في كل سنة، ثم
تجدها في إحداهما أسمن الجنس فيقيم كل جنس منها
عندنا شهرين إلى ثلاثة أشهر، فإذا مضى ذلك
الأجل، وانقطعت مدة ذلك الجنس أقبل الجنس الآخر

(١) المصدر السابق، ص ٤٤٦.

في جميع أقسام شهور السنة من الشتاء والربيع والصيف والخريف في نوع من السمك عند النوع الآخر " (١) .

إن دراسة الجاحظ لهجرة الحيوانات المختلفة ذاكرة المتشابهة منها والمتباينة ، ساعياً لإقامة البراهين بالحجج المنطقية ، مشابهاً عالم الأسماك بعالم الطيور من جهة الأفعال والأعمال وبخاصة في مجال الهجرة والترحال ، هو قياس منطقي صرف أقره البحث العلمي الحديث .

٢- ويخصص أرسطو قسماً كبيراً من كتابه للحديث عن أعضاء جسم الحيوان ، وذلك في المقالات الأولى والثانية والثالثة والرابعة (٢) .

فأعضاء جسم الحيوان تتكون من رأس ووجه وحاجبين وعيتين وأذن وعنق وبطن ورئة وقلب وأمعاء وجهاز تناسل وشرابين وأسنان ، ويطيل أرسطو الكلام في هذا المجال ويتعمق فيه ، فيدرس تركيبة هذه الأعضاء ويشرحها تعرضاً طبيعاً .

بينما نجد الجاحظ يهمل هذه الناحية غالباً ، فلم يبحث في أجزاء جسم الحيوان وكيفية تركيبها على

(١) نقلًا عن المصدر السابق

(٢) أرسطو : طباع الحيوان من ١٧-٤٠٠

النحو الذى فعله أرسسطو، الأمر الذى يقلل من قيمته العلمية فى هذا الجانب.

٣ - ويعالج أرسسطو ولادة الحيوان وعملية السفاد وأنواع التوالد ووسائله فى المقالتين الخامسة تتركيب هذه الأعضاء ويشرحها تشريحيا طبيا: والسادسة(١)، ويتوقف عند الرجل والمرأة ليدرس مظاهر الطمث والحمل والولادة وأسباب العقم دراسة طبية دقيقة فى المقالتين التاسعة والعشرة(٢).

أما الجاحظ فإنه يتصدى لهذه الناحية، ويتكلم عنها بإسهاب عند مختلف الحيوانات، غير أنه لم يستطع أن يقدم معلومات تشريحية دقيقة بصدق المرأة والرجل كما فعل أرسسطو.

٤ - ويتحدث أرسسطو عن أثر البيئة فى الحيوانات من حيث ما تقدمه لها من غذاء ومناخ يؤثران فى نمائها واستقرارها وصحتها فى المقالتين: السابعة والثامنة(٣). ويتطرق إلى أنسواع طعام الحيوانات والأمراض التى تعترضها وهجرتها.

(١) المصدر السابق، ص ٢٠١ - ٢٠١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٧١ - ٥٠٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٣ - ٤٥٩.

أما الجاحظ فإنه يتناول الموضوع ذاته، غير أنه لا يركز على تغذية الحيوانات وأثر ذلك في صحتها والأمراض التي تعززها، وإنما يهتم بتأثير البيئة في جسم الحيوانات وطبعها وسلوكها اهتماما بالغا، وهو يتفوق على أرسطو من هذه الناحية.

فالجاحظ يرى أن للبيئة أثراً لها الذي لا ينكر في اختلاف صور الحيوان وطبعاته وسلوكه وأخلاقه وألوانه "وقد رأينا اختلاف صور الحيوان، على قدر اختلاف طبائع الأماكن. وعلى قدر ذلك شاهدنا اللغات والأخلاق والشهوات"(١). "قالوا: وإنما صارت ألوان سكان إقليم بابل السُّمْرَة، وهي أعدل الألوان، لأنهم لم يولدوا في جبال ولا على سواحل بحار. فخرجت عقولهم الباطنة من الاعتدال والاستواء على حسب ألوانهم وشمائلهم الظاهرة"(٢). "وقال الصنف الآخر: لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد مأوئهم وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام، كما عمل

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ٣ ص ٢٩٤.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان، ص ٤٨.

ذلك في طباع الزنج، وطبع الصقالبة، وطبع بلاد
 ياجوج ومأجوج. وقد رأينا العرب وكأنوا أعرابا
 حين نزلوا خراسان، كيف انسلخوا من جميع تلك
 المعاني، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل،
 والدواب وجميع ماشيتهم: من سبع وبهيمة، على
 طبائعهم. وترى جراد البقول والرياحين وديدانها
 خضرا، وتراها في غير الغمرة على ذلك. وترى
 القملة في رأس الشاب الأسود الشعر سوداء، وتراها
 في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء... وقد نرى
 حرة بنى سليم وما اشتملت عليه من إنسان وسبع
 وبهيمة وطائير وحشرة فتراها كلها سوداء^(١) " وقد
 تحرر أو بار الإبل جدا على بعض المراعي...
 وتبين الإبل ورعناتها وجوهها من أكل
 الحمض"^(٢) وقد علمنا أن الطائر الصيد من
 الجوارح، لو أقام في بلاده مائة عام لم يحدث
 لمنسره زوائد، وغير العادة إذا أقام في غير بلاده
 احتاج إلى الأخذ من حافرة، وإلى أن يختلف به إلى

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٤، ص ٧٠ - ٧١.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان، ص ٤٢ - ٤٣.

البيطار، والطائر الوحشى من هذه المغنيات والنواتج، لو أقام عندنا دهرا طويلا لم يصوت إذا أخذناه وقد كرز (سقط ريشه). وكذلك المزاوجة والتعشيش والتفريخ"(١).

ويرى الجاحظ أن الروائح والعطور تشيب الشعر، وغسل الرأس بالسدر يرقه(٢).

٥ - وهناك ناحية مهمة لها طابع فلسفى قد خصص لها أرسطو قسما من كتابه(٣)، وذلك في المقالات: الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة. هذه الناحية المهمة هي الغائية في خلق الحيوان. حيث يعود مرة أخرى إلى أعضاء جسم الحيوان، عضواً عضواً، يبحث عن الغائية من تكوينها على الشكل الذي هي عليه. ويقول إن العلة المادية (الهيولى) لا تكفى لتفسيز الحياة، ويجب

(١) الجاحظ: الحيوان، ج.٧، من ١٠٠.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان من ٤٠ - ٤١.

(٣) أرسطو: أجزاء الحيوان، ترجمة يوحنا بن البطريرق، تحقيق عبد الرحمن بدوى وكالة المطبوعات الكويتية، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ويضم الكتاب المقالات ١٤، ١٣، ١٢، ١١.

البحث عن العلة الصورية التي يسميها النفس "وهو بين قولهم ليس بصواب، لأنه ينبغي أن يقال وبين لماذا الحيوان، ومثل ماذا هو، ونصف كل واحد من الأعضاء كما نصف صورة السرير، وإن كان ذلك نفساً أو جزءاً نفساً .." (١).

وارسطو ينكر مذهب الصدفة، ويرى أن "من الناس من يزعم أن كل واحد من الحيوان يكون من قبل الطباع وأن كينونة السماء من ذاتها ومن البخت، وكذلك كان تقويمها. وليس يرى أن في السماء شيئاً من البخت ولا عدم الترتيب والقصد ونحن نقول في كل موضع يظهر فيه تمام يكون فيه غاية الحركة إليه إذا لم يكن له شيء مانع للهبة" (٢). وقد عبر أرسطو عن الغائية أحسن تعبير في حديثه عن اليد دورها في حياة الإنسان "ولم يحتج الإنسان إلى مقاديم الرجالين، بل هيأ له الطباع بدل الرجالين المقدمتين: عضدين ويدين. وقد قال أناساً غورس إنه لهذه العلة - أعني أن للإنسان يديين - صار أعقل

(١) المصدر السابق ص ٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ - ٤٨

وأحط من جميع الحيوان. والأولى أن نقول إنه لكونه أعقل الحيوان صارت له يدان، لأن اليدين أكثر من الآلات، فاما الطباع فهو يبقى دائما على حاله"(١).

وبما أن علمنا بالجوادر السماوية يسير لعظم شأنها، فإنه ينبغي أن ننظر في الكائنات التي بين أيدينا "ويتبقى لنا أن لا نكره النظر في طباع الحيوان الحقير الذي ليس بكريم، ولا يصعب ذلك علينا كما يصعب على الصبيان. وفي جميع الأشياء الطبيعية شيء عجيب"(٢).

هذا هو حديث أرسسطو عن الغائية في خلق الحيوان، أما الجاحظ فهو يقول - أيضا - بالغائية في الطبيعة مثل أرسسطو، ويذهب إلى أن كل ما فيها من كائنات تدل على وجود خالق مدبر حكيم. وما على الإنسان إلا أن ينظر إلى هذه الحيوانات ليستدل من عجيب تكوينها وغريب أحوالها على حكمة الله تعالى وجوده "ونبهنا تعالى وعز على هذه المناسبة وعلى هذه المشاركة (بين الإنسان والحيوان)، وامتحن ما

(١) المصدر السابق من ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق من ٦١ - ٦٢.

عندنا بتقديمها علينا في بعض الأمور وتقديمنا عليها في أكثر الأمور، وأراد بذلك أن لا يخلينا من حجة ومن النظر إلى عبرة وإلى ما يعود عند الفكر موعظة.." (١).

بل إن الجاحظ يرى أن أحرى الحيوانات تقدم أكبر الدلالة على الله تعالى وحكمته "الا ترى بأن الجبل ليس بأذل على الله من الحصاة، وليس الطاووس المستحسن بأذل على الله من الخنزير المستقبح، وإن اختلفا في جهة البرودة والساخونة فإنهما لا يختلفان من جهة الدلالة والبرهان" (٢).

ويصفه عامة فإن الجاحظ يرى أن كل ما في العالم يشتمل على الحكمة والغاية سواء كان عاقلاً أو غير عاقل سواء كان جماداً أو ناماً "ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين: شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة. فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل في

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٧ ص ١٠.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٣، ٢٠٦.

جهة الدلالة على أنه حكمة؛ واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والأخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدلا، فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة، وعدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان دليلاً مستدلاً. ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوده استدلاله، ووجوده مانع له الاستدلال، وسموا ذلك بياناً. وجعل البيان على أربعة أقسام: لفظ، وخط، وعقد (نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له: حساب اليد)، وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدل تمكينه المستدل من نفسه، واقتداره كل من فكر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، وحشى من الدلالة، وأودع من عجيب الحكم. فال أجسام الخرس الصامدة ناطقة من جهة الدلالة، ومغربية من جهة صحة الشهادة على أن الذي فيها من التبيير والحكمة مخبر لمن استخبره، وناطق لمن استطعه، كما خبر المهزال وكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن وحسن النصرة عن حسن الحال..

وقال الفضل بن عيسى بن أبيان فى قصصه:
سل الأرض، فقل: من شق أنهارك، وغرس

أشجارك، وجئى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا، أجابتك
اعتبارا.

فموضع الجسم ونصلبته، دليل على ما فيه
وداعية إليه ومنبهة عليه فالجماد الأبكم الآخرين من
هذا الوجه، قد شارك في البيان الإنسان الحي
الناطق. فمن جعل أقسام البيان خمسة، فقد ذهب
أيضاً مذهباً له جواز في اللغة، وشاهد في العقل فهذا
أحد قسمى الحكمة، وأحد معنى ما استخرناها الله
تعالى من الوديعة.

والقسمة الأخرى ما أودع صدور صنوف
سائر الحيوان، من ضروب المعرف، وفطرها عليه
من غريب الهدایات، وسخر هنا جرهما له من
ضروب النغم الموزونة، والأصوات الملائكة،
والمخارج الشجية، والأغاني المطربة، فقد يقال إن
جميع أصواتها معدلة وموزونة وموقعة، ثم الذي
سهل لها من الرفق العجيب في الصنعة، مما ذلل
الله تعالى لمناقيرها وأكفها، وكيف فتح لها من باب
المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة، وكيف أعطى
كثيراً منها من الحسن اللطيف، والصنعة البدية، من
غير تأديب وتنقيف ومن غير تقويم وتلقيين، ومن

غير تدريج وتمرير، فبلغت بعفوها وبمقدار قوى فطرتها، من البديهة والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليه حذاق رجال الرأي، وفلاسفة علماء البشر، بيد ولا آلة. بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالاً وأتمهم خللاً، لا من جهة الاقتضاب والارتجال، ولا من جهة التعسّف والاقتدار، ولا من جهة التقدم فيه، والتأنى فيه، والتأنى له، والترتيب لمقدماته، وتمكن الأسباب المعينة عليه. فصار جهد الإنسان الثاقب الحسن، الجامع القوى، المنصرف في الوجه، المتقدم في الأمور، يعجز عن عفو كثير منها، وهو ينظر إلى ضروب ما يجيء منها، كما أعطيت العنكبوت .. وكما عُلم النحل .. في غير ذلك من أصناف الخلق. ثم لم يوجب لهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك، إلا بما قوى عليه الهمج والخشاش وصغار الحشرات، ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين والاستطاعة والتصريف، وهذا التكلف والتجربة، وهذا التأنى والمنافسة، وصاحب الفهم والمسابقة، والمتبصر شأن العاقبة، متى أحسن شيئاً كان كل شيء دونه في الغموض عليه أسهل، وجعل سائر الحيوان، وإن كان

يحسن أحدها ما لا يحسن أحذق الناس متى أحسن شيئاً عجيباً لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن، وأسهل منه في الرأي، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة، فلا الإنسان جعل نفسه كذلك، ولا شيء من الحيوان اختار ذلك، فاحسنت هذه الأجناس بلا تعلم، ما يمتنع على الإنسان وإن تعلم، فصار لا يحاوله إذ كان لا يطمع فيه، ولا يحسدها إذ لا يؤمل اللحاق بها.

ثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين بـإباء عيون الناظرين، وتجاه أسماع المعتبرين، ثم حث على التفكير والاعتبار، وعلى الاتعاظ والازدجار، وعلى التعرف والتبيين، وعلى التوقف والتنكر، فجعلها مذكرة منبهة، وجعل الفطر تتبع الخواطر وتتجول بأهلها في المذاهب. ذلك الله رب العالمين فتبارك الله أحسن الخالقين"(١).

فكل ما في السموات والأرض دال على الخالق ومقر برivityته وتوحيده: "وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق،

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٣٣ - ٣٦.

وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص. فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعماء معرية من جهة البرهان ... وقال بعض الخطباء: أشهد أن السموات والأرض آيات دلالات وشواهد قائمات، كل يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالريوبية، موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك التي تجليت بها لخلك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنهاها من وحشة الفكر، ورجم الظنون. فهي على اعترافها لك، وافتقارها إليك شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات، ولا تحلك الأوهام، وأن حظ الفكر فيك، الاعتراف لك^(١).

إن الجاحظ — خلافاً لأرسسطو — يتسع في الحديث عن الغائية والحكمة في كل مخلوقات الكون؛ وقد أورينا هذين النصين الآخرين — على طولهما — لتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن هناك فرقاً كبيراً بين غائية أرسسطو وغائية الجاحظ، فغائية أرسسطو غائية طبيعية، بينما نجد غائية الجاحظ غائية بنيوية تتطلّق

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٨١.

من إيمانه بالوحى وبالدين المنزلى من عند الله
سبحانه وتعالى، فشتان ما بين الغائبين.

أما فيما عدا ذلك فإنه يمكن القول بأن أرسطو
كان أكثر منهجية علمية من الجاحظ، حيث قسم
أرسطو كتابه إلى مقالات، تدور كل مقالة حول
ناحية من نواحي الحيوان؛ فمقالة تبحث في أعضاء
الجسم، وثانية في تناسل الحيوانات، وثالثة في
غذائهما، إلى غير ذلك. أما الجاحظ فلم يفعل ذلك، فقد
بدأ كتابه بسرد أسماء كتبه، ثم تحدث عن أقسام
الكائنات فوسائل البيان، وبعد ذلك راح يتكلم عن
مقارنة بين الكلب والديك بشكل مناظرة بين متكلمين
يتخللها استطراد في النساء، وانتقل بعدها إلى
الكلام عن سائر الحيوانات تباعاً من حمام وذيلان
وجعلان وهدهد ورخم وخفاش ونمل وقرد وخنزير
وحيات وظليم، إلى غير ذلك من الأصناف
والمعارف المختلفة.

وبعد هذه المقارنة بين كتابي أرسطو
والجاحظ في الحيوان نود أن نوضح موقف الجاحظ
من أرسطو حتى نتبين مدى أصالة الأول.

هـ - موقف الجاحظ من أرسطو:

يتضح من المقارنة بين وصف بعض الحيوانات عند كل من أرسطو والجاحظ، ومن المقارنة بين كتابيهما أن الجاحظ قد جعل من كتاب أرسطو في الحيوان مصدراً من مصادر بحثه، وأنه رجع إليه واستشهد به أكثر من ستين مرة.

والجاحظ يورد أقوال أرسطو ويعرضها بأمانة، وبالصورة التي وردت عليها في الترجمة التي اضطلع بها ابن البطريق وانتهت إلينا. ومن هنا يخطئ من يقول إن مأنسبه الجاحظ لأرسطو إما أن يكون رأه في كتاب منحولة للفيلسوف أرسطو وإما أن يكون الفها من عنده^(١).

وبعد أن يورد الجاحظ أقوال أرسطو يعلن موقفه منها، فإما أن يقبلها وفي هذه الحال لا يعلق عليها فيكون قبوله بها ضمنياً، وإما أن يشك فيها فيتوقف عن الحكم عليها، فهو يورد - مثلاً - خبر الحية الصغيرة الشديدة اللدغ في بلدة "طبيعون" والتي لا يمكن الشفاء منها إلا إذا عولج الملدوغ بحجر

(١) هو فؤاد لفراهم البستاني، انظر مجلة المشرق، المجلد ٢٦، ص ٦٦٦.

يخرج من قبور قدماء الملوك، ثم يقول معقبا عليه: "ولم أفهم هذا، ولم كان ذلك" (١). وهذا الخبر ورد في كتاب أرسطو على النحو التالي: "ويكون أيضا في النبات الذي يسمى باليونانية صافيون حبة صغيرة رديئة اللسع جداً ويزعمون أن تلك الحبة تعالج بحجر يؤخذ من قبر الملوك، وذلك الحجر ينفع شراباً ويشرب ذلك الشراب" (٢).

وإما أن يرفضها الجاحظ وينتقداها؛ فهو يقول - مثلاً - في كتاب الحيوان: "وقد ذكر أرسطو طاليس في كتاب الحيوان أنه قد ظهر ثور وثب بعد أن خصى فنزا على بقرة فأحبلاها ولم يحك هذا عن معانية، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر وتضيق بتصديق هذا الشكل" (٣). وقد ورد هذا الخبر في كتاب أرسطو على الشكل التالي: "وقد عرض لشور من التثيران أنه خصى ثم سفده من ساعته وعلقت منه الأنثى، فهذه صفة خصى الحيوان

(١) الجاحظ: الحيوان ج٤ ص ٢٢٧.

(٢) أرسطو: طبائع الحيوان ص ٣٦٨.

(٣) الجاحظ: الحيوان ج٥ ص ٥٠٢.

وخلقها واحتلafها" (١). وينكر الجاحظ - أيضاً - كون السمكة لا تبتلع شيئاً إلا مع الماء فيقول: "قال صاحب المنطق إن الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الأسفل في الماء ... أما قوله إن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعام إلا ببعض الماء فـأى عيان دل على هذا؟ وهو عذر" (٢).

وقد لا يكتفى الجاحظ بإبداء شكه فيما يقوله أرسطو وإنما يسخر منه سخرية لاذعة؛ فمن هذا قوله : "وقد أكثر في هذا الباب أرسطو طاليس، ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه. ولقد قلت لرجل من البحريين: زعم أرسطو طاليس أن السمكة لا تبتلع الطعام أبداً إلا ومعه شيء من ماء، مع سعة المدخل وشره النفس. فكان جوابه أن قال لي: ما يعلم هذا إلا من كان سمكة مرة أو أخبرته به سمكة، أو حدثه بذلك الحواريون أصحاب عيسى فإنهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح" (٣).

(١) أرسطو: طباع الحيوان ص ٩٩.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٥٤١.

(٣) الجاحظ: الحيوان ج ٦ ص ١٧.

ويقرأ الجاحظ في حيوان أرسطو خبراً غريباً مفاده أنه "قد ظهرت حية لها رأسان" (١). لم يقتصر الجاحظ بالأسباب التي ساقها أرسطو تعليلاً لوجود تلك الحية العجيبة ذات الرأسين، إذا لا يعتقد أن الظواهر الطبيعية تخضع للتعليلات، أو ينفع في إثباتها أو نفيها البرهان المنطقى، ويذهب إلى أن العيان هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن الركون إليها في الطبيعيات. وبناء على هذا يشك في خبر أرسطو ويروح يسأل الناس عما إذا كان أحدهم قد رأى حية ذات رأسين، فيجيبه أعرابياً أن خبر مثل تلك الحية حق. ولكن الجاحظ يعد كلام الأعرابي متناقضاً وكائناً. ونحن نروي الخبر كما ورد عند الجاحظ لنبيان الفرق بين منهجه ومنهج أرسطو؛ يقول الجاحظ: "وزعم صاحب المتنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان، فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق، فقلت له: فمن أي جهة الرأسين تسعى، ومن

(١) أرسطو: كون الحيوان، ترجمة يحيى بن للبطريقي، تحقيق بان بروخمان، لبنان، ١٩٧١، ص ١٥١ ويضم الكتاب المقالات الخمس الأخيرة.

أيهما تأكل وتعض؟ فقال: أما السعى فلا تسعى، ولكنها تسعى لاحتاجتها بالنقلب كما ينقلب الصبيان على الرمل. وأما الأكل فإنها تتعشى بفم وتنجذب بفم. وأما العض فإنها تعض برأسها معا، فإذا به أكذب البرية. وهذه الأخلاقيات كلها مما يزيد في الرعب منها وفي تهويل أمرها^(١).

هذا هو موقف الجاحظ من أرسطو؛ إنه يعتمد عليه ويجعله مصدرا من مصادر معلوماته ولكنه لم يعتمد عليه كليا بل فتش عن مصادر أخرى استقى منها والتي تحدثنا عنها في مصادر ثقافة الجاحظ في علم الحيوان. وقد امتحن مدى صحة معلومات الفيلسوف اليوناني التي تبقى موضع شك لديه حتى يؤيدتها العيان والتجربة أو السماع الصادق أو الشعر المؤثوق؛ فللحاظ ثقة تامة في الشعر العربي، فهو يصدره في الرد على أرسطو ويحتاج به عليه. فقد قال بعد أن سرد قول أرسطو في حقوق العقاب وجفائها لأولادها، فاما اشعار العرب فهي تدل على خلاف ذلك، قال دريد بن الصمة:

(١) الجاحظ: الحيوان ج٤ ص ١٥٦ .

وكل لجوج في العناء كأنها
إذا اغتنمت في الماء فتخاء كاسر
لها ناهض في الورك قد مهدت له
كما مهدت للبعل حسناء عاشر (١).

وهكذا يتضح لنا أن الجاحظ قد عارض
أرسسطو ورد عليه في كتاب الحيوان، فتناول
الموضوع ذاته ولكن بذهنية مختلفة ومنهج مغاير.
 فهو لم يدرس من الحيوان سوى طباعه، وأهمل
خصائصه الجسمية الخارجية والداخلية. وهو لم
يقتصر كأرسسطو على التجربة والعيان كمصدر من
مصادره، وإنما اعتمد أيضاً وبشكل واسع على
السماع والشعر والقرآن والأحاديث ومؤلفات
القدماء. وهو لم يتبع منهجاً واحداً في كتابه ولهذا
نجد كثيراً من الاستطراد عنده، ولم تكن ثقته
بارسطو أشد من ثقته في شاعر أو أعرابي. ولهذا
ليس في كتابه إلا أثر ضئيل من آثار حيوان أرسسطو،
علم الرغم مما نقله عنه (٢). وقد أخطأ البغدادي في

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٧ ص ٣٧.

(٢) دلالة المعرفة الإسلامية ج ٦ ص ٢٣٦.

قوله بأن الجاحظ "سلخ معانى كتاب الحيوان لأرسطاطاليس، وضم إليه ما ذكره المدائنى من حكم العرب وأشعارها فى منافع الحيوان" (١). ليتهم بالنقل، ولينفى عنده الجدة والمنهج الإبداعى.

هذا هو موقف الجاحظ من أرسطو وهو موقف أصيل يدل على أصلية المفكر المسلم تجاه الثقافات الأخرى، ولاسيما إذا كانت هذه الثقافة مثل الثقافة اليونانية.

(١) عبد القاهر البغدادى: الفرق بين الفرق دار الأفاق ببروت ١٩٧٣
ص ١٦٢.

الفصل الخامس

الحافظ والعلم الحديث

١ - سِيْكُولُوجِيَّةُ الْحَيْوَانِ عِنْدَ الْجَاحِظِ:

لقد كان للجاحظ فضل السبق في مجال دراسة سلوك الحيوان والطرق العلمية التي احتطها في بحوثه في هذا المجال. يحدثنا الدكتور أحمد أمين عن هذا فيقول: "إن الجاحظ سبق إلى اتجاهات قيمة فيما يسمى بـسيكولوجية الحيوان؛ فهو يراقب نداء الدبik بالليل، ويبحث هل إذا كان في قرية وحده يصبح أولاً. ويراقب الدجاج هل يكثر فراخها إذا كثر عديدها أو تقل؟ ويلاحظ الكلب ملاحظة دقيقة ليعلم مقدار ذكائه ووجه تتباهه والفارق الدقيق بين أصنافها، إلى كثير من أمثال ذلك" (١).

والواقع أن علم نفس الحيوان، علم جديد، غير أن كتاب الحيوان الذي ألفه الجاحظ في القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي قد تضمن ملاحظات كثيرة يمكن عدّها بذورا وأصولا لهذا العلم الحديث.

فقد أقر الجاحظ مبدأ أساسيا هو أن الغريزة هي التي تسسيطر على سلوك الحيوان وتسيره، وهي

(١) أحمد أمين: ضحي الإسلام، لطبعه المسالمة، القاهرة ١٩٦١ جـ ١ ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

طبع فطر عليه، تعمل بمنتهى الدقة، وتقوم في الحيوان مقام العقل في الإنسان. ومن ثمما أن العقل يرشد الإنسان إلى ما فيه خيره وصلاحه، فيدله على الطريق المستقيمة التي ينبغي سلوكها، فكذلك الغريزة ترشد الحيوان إلى ما يحقق منفعته وسلامته وإن كان الإنسان يصلح بالروية والتصفح والتحصيل والتمثيل ما لا يبلغه شيء من السباع والبهائم، فإن لها أموراً تدركها وصفة تتحققها تبلغ منها بالطبع سهوا و هويا ما لا يبلغ الإنسان في ما هو بسيطه إلا أن يكره نفسه على التفكير وعلى إدامه التقدير والتكييف والمقلبيين .."(١).

وكما يختلف الناس في سلوكهم وأخلاقهم، فكذلك الحيوانات تختلف في طباعها. "بعضها يعرف بالمكر والحيل والكيس والروغان، وبالفطنة والخدعة والرفق والتكسب والعلم بما يعيشه والآخر مما يعطيه وتائيه لذلك وحده"(٢) وبعضها الآخر "يعرف بالتقافة .. والصبر على المطاولة والعزم والروغان

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ١٧ ، ٣٥ - ٣٦.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٨.

والمكر والجolan، ووضع تلك التدابير في مواضعها حتى لا ترى له طعنة ولا تخطئ له وثبة^(١). وببعضها "يعرف بالنظر في القيافة، وبأحكام شأن المعيشة، والأخذ لنفسه بالثقة وبالتقدم في حال المهلة والادخار لـ يوم الحاجة"^(٢).

ويرى الجاحظ أنه على الرغم من سيطرة الغريزة على سلوك الحيوانات وطبعها فإنها قابلة للتعلم كالإنسان. مثال ذلك الحمام الذي يتميز بقدرة على الاستدلال والحفظ والألفة للأوطان ويستخدم في البريد "والدليل على أنه يستدل بالعقل والمعرفة والتفكير والعناية أنه إنما يجيء على الغاية على تدريج وتدريب وتزويل .."^(٣).

وعند الجاحظ معظم الحيوانات - عدا الخنزير والذئب - تقبل التربية والتاديب؛ فالخنزير "يكون أهلياً ووحشياً كالحمير والستانيز مما يعاشر الناس. وكلها لا تقبل الآداب. وإن الفهود وهي وحشية تقبل كلها، كما تقبل البواوزي والشواهين والصقرة الزرق

(١) الجاحظ: للحيوان ج ١ ص ١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢١٥.

والبؤبؤ والعقارب وعناق الأرض وجميع الجوارح والوحشيات" (١).

وقد لاحظ الجاحظ أن صغار الحيوان أسهل في التأديب والتزويف من كبارها لأن الصغير إذا أدب فبلغ، خرج علينا موأكلًا، والمسن الوحشى يخلص لك كله حتى يصير أصيد وأنفع، وصغار السبع والطير وكبارها على خلاف ذلك، وإن كان الجميع يقبل الأداب" (٢). وأقدر الحيوانات على التعلم أربعة هي الدب والقرد والفيل والكلب (٣).

وينتهي الجاحظ إلى نظرية مهمة، وهي أن الحيوانات تملك قدرًا من الذكاء إلى جانب الغريزة، وهو قدر يتفاوت بين حيوان وآخر. فالحيوانات مثلاً تحتمل بضرورب من الحيل لصيدها؛ فبعضها ينتصب في الرمال عند الهاجرة كالعود، فيأتي الطير فيخدع بمنظرها الذي يشبه العود ويجهّم عليها فتقبض عليه وتبتلعه (٤). وبذهب الجاحظ إلى ما هو أبعد من

(١) المصدر السابق ج٤ ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق ج٤ ص ٤٧ - ٤٨.

(٣) المصدر السابق ج٦ ص ٣١٦.

(٤) المصدر السابق ج٤ ص ٩٩.

هذه الغاية حيث يرى أن للحيوانات لغة بها تتفاهم، وإن كانت هذه اللغة تختلف عن لغة البشر.

يقول الجاحظ: "إن للطير منطقاً تتفاهم به حاجات بعضها البعض، ولا حاجة إلى أن يكون لها في منطقها فضل لا تحتاج إلى استعماله، وكذلك معانيها في مقدار حاجاتها" (١). ومن الأمثلة على ذلك ما يحدث للنمل، إذ ترى الذرة عند ما تعجز عن جر جسم أكبر منها كالجرادة تذهب إلى رفيقاتها وتدعوهن إلى مواترها، وبعد قليل تراها قد عادت برفقتهن ويتعاونن على جرا الجراد. ويلاحظ أن عند السنانير خمسة أصوات يدل كل منها على حاجة؛ فصوت يدل على الضرب، وصوت يدل على الدعاء للطعام، وصوت يدل على الجوع، وصوت يدل على استدعاء أخواتها إليها، وصوت يدل على العراك والمشاجرة (٢).

كما يرى الجاحظ أن بعض الحيوانات تفهم لغة البشر عندما يكلمنها، ولا سيما تلك الحيوانات

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٧ ص ٥٦.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٤ ص ٢٢٧، ج ٥ من ٢٨٩.

الأليفة التي تعيش معهم " والناس قد يكلمون الطير والبهايم والكلاب والستائر والمراكب وكل ما كان تحتهم من أصناف الحيوان التي قد خولوها وسخرت لهم. أو ربما رأيت القراد يكلم القرد بكل ضرب من الكلام ويطبله القرد في كل ذلك. وكذلك ربما رأيته يلقن الببغاء ضرورياً من الكلام والببغاء يحكى. وإن في غراب البين لعجباً، وكذلك كلامهم للدب والكلب والشاة المكية، وهذه الأصناف التي تلقن وتحكى"(١).

وقد سبق الجاحظ العالم "بافقوف" صاحب

نظرية الارتباط أو الانعكاس الشرطي في التبه إلى الظاهرة التي بني عليها هذا العالم نظريته؛ فالجاحظ يقول: "وقد حدثني صديق لي أنه حبس كلبه في بيت وأغلق دونه الباب في الوقت الذي كان طباخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم، ثم أحد سكيناً بسكين ففتح الكلب ورام فتح الباب لتوهمه أن الطباخ قد رجع من السوق .. وهو يحد السكين ليقطع اللحم"(٢). غير أن الجاحظ لم يتسع في هذه الظاهرة ولم يستغلها الاستغلال الأمثل.

(١) المصدر السابق ج ٧ ص ٢١٨.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٠.

كما تتبه الجاحظ إلى ظاهرة نفسية توجد لدى الحيوان هي ظاهرة الحس بالزمن. وقد تظهر على نحو مرهف عند بعض الحيوانات كالديك مثلاً. فالديك يطلق صياحاً في أوقات معينة من الليل يراعي فيها الدقة بحيث يمكننا أن نعرف كم مضى من الليل وكم بقى منه. ويقسم صياحته على مدى الليل سواء طال أو قصر حتى إنه ليشبه الأسطر لاب (١). والأطرف من ملاحظة الجاحظ لهذه الظاهرة هو تساؤله عن علتها: فهل يصبح الديك لأنّه ينكر شيئاً يقترب منه كما يفعل الكلب؟ أو أنه يصبح لأنّه يسمع صوتاً شائعاً شأن الكلب أيضاً؟ جواب الجاحظ هو أنه يصبح (شيء) في طبعه. إذا قابل ذلك الوقت في الليل هيجه، فعدد أصواته في الوقت الذي يظن أنه تجاوب فيه الديكة كعدد أصواته في القرية وليس في القرية ديك غيره (٢) يصبح.

هذه هي ملاحظات الجاحظ فيما يتصل بعلم نفس الحيوان، وهو علم من مستحدثات علوم

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٢ ص ٢٤١.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٢.

العصر، ولم يسبق إليه غير الجاحظ فيما نعلم. الأمر الذي يدل على عبقرية هذا الرجل وقوته إيداعه في مجالات كثيرة والتي منها علم نفس الحيوان.

وهناك جانب آخر ينبغي لنا أن نناقشه لدى الجاحظ وهو أمر يتعلق بالكائنات الحية، وهو نظرية التطور العضوي والتي هي أيضاً من النظريات الحديثة، فهي وليدة القرن التاسع عشر الميلادي، أي أن بينها وبين الجاحظ أكثر من عشرة قرون، مadam الجاحظ قد أظهر لنا رياسته في علم الحيوان على النحو الذي سقناه سابقاً.

ب - الجاحظ ونظرية التطور العضوي:
نظرية التطور العضوي من النظريات العلمية الحديثة، فهي بنت القرن التاسع عشر الميلادي. والتطور العضوي يعني الاعتقاد بأن الحيوانات والنباتات تكونت من أشكال سبقتها نتيجة تحول تدريجي مستمر (١)، أو القول بأن جميع الكائنات الحية التي تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد أو بضعة أصول، وأن التغيرات المختلفة التي

(١) الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، القاهرة من ٥٢٩.

حدثت لها قد جعلتها تتحوال من كائنات بسيطة
التركيب إلى أخرى أكثر تعقيداً (١) .
وهناك ثلث نظريات تفسر التطور في العصر
الحديث هي :

- ١- نظرية لامارك (١٧٤٤-١٨٢٩م) عن توارث
الصفات المكتسبة Lamarks Theory of the Inheritance
التي طرحتها في كتابه فلسفة علم
الحيوان .
- ٢- نظرية دارون عن الانتخاب الطبيعي Durwins Theory of Natural Selection
والتي وضعها في كتابيه
"أصل الأنواع" (١٨٥٩) و "-Origin of the Species" الذي
نشره (١٨٧١) .
- ٣- النظرية التركيبية الحديثة Modern Synthetic Theory
وهي ليست من وضع عالم واحد وإنما هي من وضع
مجموعة من العلماء بعد دارون .

(١) فاطمة محجوب ، دائرة معارف الشباب ، الطبيعة الأولى ،
القاهرة ص ٤٢٩

وأى نظرية شاملة للتطور يجب أن تأخذ في الاعتبار العوامل الداخلية Internal factors والعوامل الخارجية External Factors وتشمل العوامل الداخلية التوارث والاختلاف والتباين والتكون، أما العوامل الخارجية فهى جميع الظروف البيئية التي تؤثر في الأفراد والجماعات^(١).

على أية حال تتسب نظرية التطور إلى تشارلز دارون" وكتابه "أصل الأنواع"، وهو يلخص نظريته قائلاً: "لا يمر بي خلجة شاك في أن ما كنت أقطع به كما قطع الطبيعيون من القول بأن كل نوع من الأنواع قد خلق مستقلاً بذاته، خطأ محض". وإنى لعلى تمام الاعتقاد بأن الأنواع دائمة التحول، وأن الأنواع التي تتحقق بما نسميه الأجناس اصطلاحاً، هي أعقاب متسللة عن أنواع طواها الانقراض، على نفس الطريقة التي تغير بها الضروب لأى نوع أعقاباً متسللة عن ذلك النوع ذاته. وإنى فوق ذلك لشديد الافتئاع بأن الانتخاب

(١) د/محفوظ عزام: نظرية التطور عند مفكري الإسلام، دار الهدى، القاهرة سنة ١٩٨٦ ص ١٩٥.

الطبيعي هو السبب الأكبر والمهيمن الأقوى لحدوث التحولات، ولو لم يكن السبب الأوحد الذي انفرد بتأثيرها إلى عالم الوجود"(١).

ثم قال في كتابه "تعدد الإنسان" أو "أصل الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس" إن الإنسان متطور عن نوع سابق له.

أما فيما يتعلق بالجاحظ فإننا يمكننا القول بأن الجاحظ لم يستعمل كلمة التطور، وإنما استعمل الفاظا كالقلب والنقل والنسخ، قاصدا بها تغير الكائن من حال إلى حال أخرى. الأمر الذي يشم منه رائحة القول بالتطور العضوي. يؤيد هذا ما نجده عنده من فلسفة التصنيف؛ ومن الحديث عن تأثير البيئة والوراثة، والقول بالتهجين؛ بالإضافة إلى حديثه عن أصل بعض الحيوانات.

لقد فكر الجاحظ في أصل الحياة، وقال بنظرية التولد الذاتي أو التلقائي، ومعناه أن بعض الحيوانات تتولد من مادة ليس فيها حياة، وذلك لما

(١) شلرلز دلوون: أصل الأنواع، ترجمة إسماعيل مظہر، مكتبة النهضة بيروت - وبغداد، سنة ١٩٧٣ من ١٢٢.

يلاحظه الناس من ظهور بعض الحيوانات فجأة،
كخروج الصندع من الطين "وذلك الصندع إنما هي
شيء يخلق تلك الساعة من طباع الماء والهواء
والزمان وذلك التربة على مقادير ومقابلات"(١).

وهذا التولد كان يسمى عند فلاسفة العصر
ال وسيط بالتولد المشكك. ويضيف بعض الباحثين إلى
التولد الذاتي مبدأ العلية وينسبه إلى أرسطو
والفلاسفة الإسلاميين.

وكان لرأي الجاحظ في أصل الحياة أثره فيمن
جاء بعده من المفكرين وال فلاسفة المسلمين كالفارابي
وابن سينا وإخوان الصفا وابن طفيل. فقد فتح باب
البحث لهم عن أصل الحياة. ويفترض العلماء
المعاصرون أن الكائنات الحية على وجه الأرض قد
تولدت في البدء من جزيئات عضوية تجمعت في
الماء والطين لتكون أبسط الكائنات الحية(٢).

والحق أن بعض المعتزلة قد أسرف في القول
بالطبائع وأثرها في الخلق إسراها هو أشبه بأن يكون

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ١٥٦.

(٢) د/أبور عبد العليم: نصوة التطور، القاهرة، ص ٥٩ وما بعدها.

مجاراة للدهريين في فلسفتهم، واتباعاً لمذهبهم،
وللحاظ كثير من ذلك يدل على متابعة المعتزلة
سبيل الدهريين، أو على أنهم - على الأقل - كانوا لا
يتأنمون من ذلك فهو يقول مثلاً: "وقد أنكر ناس من
العوام وأشباء العوام أن يكون شيء من الخلق كان
من غير ذكر أو أنشى. وهذا جهل ب شأن العالم،
وبأقسام الحيوان. وهم يظنون أن على الدين من
الإقرار بهذا القول مضره. وليس الأمر كما قالوا.
وكل قول يكذبه العيان، فهو أفحش خطأ وأسخن
مذهب وأدل على معاندة شديدة أو غفلة مفرطة وإن
ذهب الذاهب إلى أن يقيس ذلك على مجاز ظاهر
الرأي دون القطع على غيب حقائق العطل، فاجراه
في كل شيء، قال قولاً يدفعه العيان أيضاً. مع إنكار
الدين له. وقد علمنا أن الإنسان يأكل الطعام ويشرب
الشراب وليس فيهما حية ولا دودة فيخلق منها في
جوفه ألوان من الحياة وأشكال من الديدان من غير
ذكر وأنشى. ولكن لا بد لذلك التولد واللقاء من أن
يكون عن تناكح طبائع، وملائكة أشياء تشبه بطبعاتها
الأرحام، وأشياء تشبه في طبائعها ملائكتها

الأرحام" (١).

ومهما يكن من خطأ هذا القول في نظر العلم الحديث الذي يثبت أن الحى لا يأتي إلا من حى كما يقول "باستير"، فإن الذى يعنينا هو دلالته على أن بعض المعتزلة - والجاحظ منهم - كانوا يذهبون إلى أن خصائص المادة كافية فى إيجاد الكائن الحى، وأن وجود هذا الكائن ليس إلا نتيجة اجتماع هذه الخصائص والقوى. وما أشبه هذا بمذهب الفلسفه الدهريين أو الطبيعيين!

اما فيما يتعلق بفلسفه التصنيف عند الجاحظ فإننا نجده يقسم الكائنات الحية إلى أنواع ورتب، وقد يوحى الترتيب وال التقسيم بأن هذه الكائنات قد نشأت بوساطة التحور والتحول، كل من المرتبة التي تسبقه، ولكننا في الواقع لا نستطيع أن نجزم بأن الجاحظ يقول بتحول الكائنات بالمعنى الذى ذهب إليه دارون بعد نحو عشرة قرون. وكل ما نستطيعه هو أن نقول إن التطور عند الجاحظ نوع من الترتيب وال التقسيم والتصنيف يعتمد على افضلية الكائنات

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٣ ص ٣٦١ - ٣٦٢.

وشرفها دون أن تذهب إلى القول بأنه "دارويني"
فعلا.

فالجاحظ يقسم الكائنات النامية إلى حيوان
ونبات؛ ويقسم الحيوان إلى ثدييات وطيور وأسماك
وزواحف؛ ويقسم الثدييات إلى إنسان وبهائم وسباع
وحشرات^(١).

ثم يقسم الطير إلى ثلاثة أنواع، وكل نوع
ينقسم إلى أنواع، وهناك من الطير ما هو مشترك
بين نوعين، كما أن هناك من الحيوانات ما هو
مشترك أيضاً بين نوعين^(٢).

وهو يقسم الحيوانات باعتبارات مختلفة،
فيقسمه إلى فصيح وأعجم^(٣). والفصيح هو الإنسان.
وقد كان للجاحظ أثره فيما جاء بعده، كإخوان
الصفا وغيرهم. حيث يقسم إخوان الصفا الحيوان
إلى نتاج وتكوين^(٤)، والنتائج من مماسة الأجسام
بعضها ببعض، والتكونين من امتزاج الطبائع بعضها
بعض. وهناك تقسيم آخر للحيوان عندهم،

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨ - ٣١.

(٣) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢.

(٤) إخوان الصفا: رسائل، طبعة سنة ١٣٥٥ هـ مجلد ٢، ص ٣٧٦.

حيث تنقسم إلى: تامة كاملة، وهي كل حيوان ينزو ويحمل ويرضع ويربى الأولاد، وناقصة وهي كل حيوان يسفل ويبيض ويفرخ، ومتولدة من العفونات، وهي كل حيوان لا يسفل ولا يبيض ولا يلد ولا يعيش سنة كاملة^(١).

كما أنهم يرون أن الحيوانات الناقصة الخلقة متقدمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان في بدء الخلق، وذلك أنها تتكون في زمان قصير، والتي هي التامة الخلقة تتكون في زمان طويل^(٢). وحيوان الماء وجوده قبل حيوان البر بزمان، لأن الماء قبل التراب والبحر قبل البر في بدء الخلق، والحيوانات كلها متقدمة الوجود على الإنسان بالزمان، لأنها لأجله، وكل شيء هو من أجل شيء آخر فهو متقدم الوجود عليه^(٣).

ولقد عقد الجاحظ مقارنات عديدة تبين المشابهة التي بين الإنسان والحيوان، وبين الإنسان والطير في الناحيتين: النفسية والتاريخية. فقد قارن

(١) المصدر السابق: مجلد ٢ ص ١٢٨.

(٢) المصدر السابق: مجلد ٢ ص ١٢٠.

(٣) المصدر السابق: مجلد ٢، ص ١٢١.

بين الإنسان والطير والحمام، وقارن بين الإنسان والقرد والفرس وبعض الحيوانات الأخرى. وهو يستدل من ذلك على وحدة الخلق ووحدة الخالق وقد اقتفي أثره في ذلك العديد من العلماء والمفكريين المسلمين من أمثال ابن قتيبة وأبن طفيل والدميري وأبن عربى وغيرهم من العلماء والمفكريين.

والحق أن المشابهة لا تكفى دليلاً على أن الكائنات نتورة عن طريق التحول، وهى إن دلت على شيء فإنما تدل على وحدة الخلق ووحدة الخالق سبحانه وتعالى.

وقد أدرك ذلك الجاحظ بوعيه العلمي ومنطقه الإيمانى حيث إنه ينفي اتخاذ المشابهة دليلاً على أصل الحيوان أو الطير بقوله "إن كان الذى دعا إلى القول فى الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه (اشتركاً وبلغنا) دليلاً على تركيب الخلق، فالجاموس بالفارسية (كلو ماش) وتأويله ضائى يقرى، لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيراً من مشابهة الثور، وليس أن الكباش ضربت فى البقر فجاءت الجواميس" (١).

(١) الجاحظ: كتاب الحيوان، ج ١ من ١٥١ - ١٥٢.

وهناك ظاهرة تحدث الجاحظ عنها كثيراً
ولكنها مراوا، وهي تأثير البيئة على الكائنات الحية
بما فيها الإنسان. وهو بذلك سابق على إخوان الصفا
وابن خلدون وغيرهم من القدماء والمحدثين الذين
جاءوا بعده بقرون عديدة من أمثال لامارك ودارون
والداروينيين الجدد.

فقد لاحظ الجاحظ أن للبيئة تأثيراً بالغاً على
الحيوان والإنسان، ولكن الإنسان أقوى على التكيف
مع البيئة من الحيوان، ولا سيما إذا جيء به إليها
صغيراً. وهو يعجب من كون "رجال الروم" تصلح
في البدو مع الإبل، ودخول الإبل بلاد الروم هو
هلاكها. فاما السندي، فإن السندي صاحب الخربة إذا
صار إلى البدو وهو طفل خرج أفسح من أبيه
مهدية ومن أبيه مطرف الغنوى"(١).

إن تأثير البيئة واضح في اللون، فالحيوان
ينصبغ بلون البيئة، فإذا كانت سوداء غداً أسود
اللون، وإذا كانت خضراء اخضر اللون. وإذا نقلته
من بيئه إلى بيئه أخرى استحال لونه من لون إلى

(١) المصدر السابق، جـ٤، ص ٧١.

آخر: "وترى القملة في رأس الشاب الأسود الشعر
سوداء، وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر
بيضاء، وتراها في رأس شمطاء وفي لون الحمل
الأورق، فإذا كانت في رأس الخصيبي بالحمرة، ترى
حمراء فإذا نصل خضابه صار فيها شكلة بين بيض
وأحمر، وقد ترى حرة بني سليم وما اشتملت عليه
من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها
سوداء" (١).

كما تؤثر البيئة في شكل الإنسان الخارجي
وهيئته حتى يبدو مسخاً من المسوخ له شعر طويل
كالحيوان ووجه يشبه القرد في قبحه، وذنب أو شبه
ذنب كسائر الحيوانات، وذلك إذا عاش في بيئه سيئة
التربة والهواء والماء. يقول الجاحظ: "وقد خبرنا من
لا يحسى من الناس أنهم قد أدركوا رجالة من نبط
بيسان ولهم أذناب، أو عجوب طوال كالأنثاب،
وريما رأينا الملاح النبطي في بعض الجعفريات على
وجه شبه القرد، وريما رأينا الرجل في المغرب فلا
نجد بيته وبين المسخ إلا القليل.

(١) المصدر السابق نفسه.

وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الرديئة ناسا في صنعة هؤلاء المغاربيين ويكونون جهالا فلا يرتجلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم، ولا ينتقلون فإذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور وفي تلك الأذناب وفي تلك الألوان الشقر وفي تلك الصور المناسبة للقرود (١). كما يظهر تأثير البيئة في الطبع ا أيضاً، ويعطى الجاحظ على ذلك مثل العرب الذين كانوا أعرابا ثم انتقلوا إلى بلاد خراسان فتخلوا عن جميع أخلاق البدائية. وينظر كذلك مثل الزنوج والسترك وكيف أن طبيعة بلاد كل منهم أثرت على طباعهم تأثيرا واضحا. وتأثير البيئة لا يحدث فجأة وإنما يحتاج إلى أزمان متطاولة (٢).

وإذا كانت العوامل الخارجية تؤثر في الكائنات الحية فإن هناك - أيضاً - عوامل داخلية لها أثرها، كالوارثة وغيرها. يقول الجاحظ: "وشر الطبائع ما تجلذبه الأعراق المتضادة، والأخلاق المتفاوتة،

(١) الجاحظ: الحيوان، ج٤ ص٧٢، ج٥، ص ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق، ج٤ ص٧٠ - ٧١ والبيان والتبيين ج٤ من ٦ - ٧.

والعناصر المتباينة " (١) . ويقول في ظهور
الخصائص المتراثة على قدر من العمر " أن الجعل
يظل دهراً ولا جناح له ، ثم ينبع له جناحان ، وذلك
عند هلكه . والداعم ينص قد تغير حيناً ثم تصير فرائساً
وليس كذلك الجراد والذباب ، لأن أحنتها تبعت على
مقدار من العمر ومرور الأيام " (٢) .

ويتعلق بقانون الوراثة الذي تحدث عنه الجاحظ
موضوع آخر أو مبدأ آخر هو في حقيقته طريقة
أخرى لتنوع الكائنات الحية ، ذلك المبدأ هو التهجين
(Hybridization) ، ويقصد بهذا المبدأ التزاوج بين
فردين مختلفين في صفة وراثية واحدة أو أكثر ،
بحيث ينشأ في النسل الهجين صفات وراثية جديدة
مرغوبة ، تحقق الغاية المطلوبة ، ألا وهي التنوع
الوراثي في الأنسال .

لقد تحدث الجاحظ عن " التهجين " ، وعبر عنه
أحياناً بالخلق المركب ، وأخرى بالنتائج المركبة ،
وثلاثة بالحيوانات المشتركة ، وطبق ذلك على العديد
من الطيور والحيوانات (والبشر) .

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان ، ج ١ ص ١٠٢

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٥٨

وقد سبق الجاحظ بهذا الحديث عن "التهجين" كل من جاءه بعده من القدماء والمحثثين من أمثال "الدميري" و "القرزوني" و "الحافظي الديمياطي" وأصحاب نظرية التطور الداروينية .

لاحظ الجاحظ أن الحيوان الجديد الذي يأتي من أبوين مختلفين يأتي أعظم من الأصل أحياناً ، كما هو الحال في البغل والحمام الراعبي " وقد وجدنا عزمول البغل أطول من عزمول الحمار والفرس والبرذون ، وهؤلاء أعمامه وأخواه ، فقد وجدنا بعض الفتاج المركب وبعض الفروع المستخرجة أعظم من الأصل ، ووجدنا الحمام الراعبي أعظم من الورشان الذي هو أبوه ومن الحمامات التي هي أمه ، ولم نجده أخذ من عمر الورشان شيئاً ، وخرج صوته من تقدير اصواتها ، كما خرج شحح البغل من نهيق

الحمار وصهيل الفرس، وخرج الراعبى مسرولا ولم يكن ذلك فى أبويه، وخرج متقللا سىء الهدایة، وللورشان هداية وإن كان دون الحمام، وجاء أعظم جثة من أبويه، ومقدار النفس فى ابتداء هديله إلى منقطعه أضعاف مقدار هديل أبويه^(١). ومن خصائص النتاج المركب أنه أطول عمرا من أصله كالحمر الوحشية الأخرى^(٢).

وعلى الرغم من هذا فإن النتاج المركب يبقى خاضعا للطبيعة لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه. فهناك حيوانات مختلفة، لا يمكن أن يتولد من تсадفها حيوان جديد أو لا تتساقد من نفسها كالغنم والماعز^(٣).

وهذا يميز الجاحظ بين الأمور الواقعية في مجال التهجين وبين الخرافات والأباطيل التي كانت

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٩.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٢.

تنتشر في أيامه وتزعم أموراً وهمية غير صحيحة.
يقول الجاحظ: "وقد تجاسر ناس على توليد
أبواب من هذا الشكل (ويقصد به التهجين بين أنواع
حيوانية بعيدة بنسبيها عن بعضها ولا يعقل أن تنتج
نسل) فادعوا أموراً، ولم يحفلوا بالتقريع والتكتيب
عند مسألة البرهان، وقد زعموا أن الزرافة خلق
مركب بين الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والذئب
(وهو ذكر الضباع). ومثل هذه الأقوال لا يتحققها
الامتحان وما عندنا معرفة بها" (١). ويشكك الجاحظ
في الأقوال حول تبادل الكلاب مع الثعالب، والثعالب
مع الهرة الوحشية، وي Ferdinand هذه الأقوال ويصفها،
ويصف أهلها بأنهم ناقلون غير مدفقين، ومقلدون
غير مطبيقين. ولم ينج أرسطو - في نظر الجاحظ -
من ارتكاب هذا الخطأ، فزعم أن أصنافاً من السباع
المترادفات المتلاحمات مع اختلاف الجنس
والصورة معروفة النتائج مثل الذئاب التي تسعد

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ من ١٨٩ وما بعدها.

الكلاب في أرض رومية، كما أن الكلاب السلوقية
تتولد من سفاد الثعالب والكلاب (١).

كما ينكر الجاحظ مزاعم الأعراب الذين
يقولون إن الجن والناس يتلاقيون فينتج من ذلك
خلق مركب. ولا ينسى الجاحظ النتاج المركب بين
أعراق الناس الذي يلائى أجمل من أصله وأقوى
كالخلاصى الذى يتخلق بين الحبش والبيضاء، فالعادة
فيه أن يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصلية (٢).
ومن الأمثلة على التهجين بين الأنواع
الحيوانية التى ذكرها الجاحظ وهى فى الوقت نفسه
مطبقة فعلاً فى الوقت الحاضر:

١ - التزاوج بين الحمير والخيول؛ فإذا كانت
الأم فرساً أنتجت لنا بغلاء كثيراً لكبر رحم أمها فهو
شبيه بها وإذا كانت الأم "أتانا" أنتجت لنا "نعلاً" فهو
أشبه بأمه الحمار، وهو صغير الحجم (٣).

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٥.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٥٧.

(٣) الجاحظ: رسائل، تحقيق عبد السلام هارون، الخانجي سنة ١٩٦٥
ج ٢ ص ٢٩٧ وقارن: الفرويني: عجائب المخلوقات وغرائب
الموجودات ص ٢٠٧.

٢ - التزاوج بين الورشان والحمام، يعطي الحمام الراعي (١) "الذى ذهبت عنه هداية الحمام وشكل هديره وسرعة طيراته، وبطل عنه عمر الورشان وقوه جناحه، وشدة عصبه، وحسن صوته، وشحو (اتساع) حلقه، وشكل لونه، وشدة إطرابه .. وفي الراعي أنه مسؤول متقى، وحدث له عظم بدن وثقل وزن، لم يكن لأبيه ولا لأمه" (٢). فهو لم يأخذ من هداية أمه شيئاً ولم يعطه أبوه من طول عمره شيئاً.

٣ - التزاوج بين فوالج البخت مع إناث البخت يعطى الحولز. وهى القصيرة العنق التى لا تقال كلاً ولا ماء إلا بمساعدة صاحبها. والبخت هي الإبل الخراسانية التى تنتاج من عربية، وفالج هو الجمل الضخم ذو السنامين ويوجد فى "казاخستان" وصخارى "تركماناستان". والتماروج بين فوالج البخت وفلاص العرب يعطى "الجواميز" أو الجمازات (٣) (العراب نوع ممتاز من الإبل العربية،

(١) الجامعنة: الحيوان ج ١ من ١٠٢، ١٣٧، ١٠٣، ١٣٨. وقلرن: ابن قتيبة: عيون الأخبار مجلد ٢ من ٧٠.

(٢) الجامعنة: الحيوان ج ١ من ١٠٢.

(٣) المصدر السابق ج ٥ من ٤٥٩.

والجواميز إيل ممتازة أيضاً).

٤ - التزاوج بين الكلب السلوقي وكلب الراعي يعطى الخلاسي (١).

هذا، ويرى الجاحظ أن "البغل" هو أكمل أشكال التهجين، وأنه عقيم، لا يلد. كما يرى أن "الزرافة" نوع من الحيوان قائم بنفسه كقيام الخيل والحمير، ومما يحقق ذلك أنه يلد مثله، وقد شوهد ذلك وتحقق.

ومن الظواهر التي لاحظها الجاحظ وتنصل بقضية التطور هي الشبه بين القرد والإنسان. فالجاحظ يذكر أوجه الشبه بين القرد والإنسان في المظهر والحركات وكيفية تناول الطعام وتغميض عينيه والضحك وشكل الكف والأصابع، وفي التقليد والمحاكاة وقابلية التعلم والسباحة، حيث يقول: "وقد عرفت شبه باطن الكلب بباطن الإنسان، وشبه ظاهر القرد بظاهر الإنسان: ترى ذلك في طرفه وتغميض عينيه، وفي ضحكته، وفي حكمته، وفي كفه وأصابعه، وفي رفعها ووضعها، وكيف يتناول بها، وكيف يجهز اللقمة إلى فيه، وكيف يكسر الجوز

(١) المصدر السابق ج ١ من ٣١٢ - ٣١١.

ويستخرج لبه، وكيف يلقن ما أخذ به وأعيد إليه، وأنه من جميع الحيوان إذا سقط في الماء غرق مثل الإنسان، ومع اجتماع أسباب المعرفة يغرق إلا أن يكتسب معرفة السباحة..(١).

ويختلف الجاحظ عن دارون، حيث يقول الجاحظ بالتطور الهازي أو النازل، نحو الأردا أو الأحط وهو ما أطلق عليه اسم المسخ.

بينما يقول دارون بالتطور الصاعد الذاهب نحو الأرقى والأصلح. فالإنسان عند الجاحظ هو الذي انقلب إلى قرد وليس القرد هو الذي ارتقى إلى مرحلة الإنسانية(٢).

ويرى الجاحظ أن العوامل التي آلت إلى هذا التطور النازل أو المسخ هي البيئة التي أثرت في الإنسان وأحالته إلى قرد بسبب رداءتها وفساد هوانها وخبث مائها(٣). ولكن هذا التطور ربما تم بالطفرة أي دفعة واحدة، وربما استغرق دهورا طوالا(٤). وهذا التطور صحيح طالما أنه لا يخالف الطياع(٥). إن ما يؤكد قرابة القرد والإنسان عند الجاحظ ليس فقط الظاهر الذي تحدثنا عنه أو الصفات

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٤ ص ٩٩.

(٣) المصدر السابق: ج ٤ ص ٧٢، والدلائل والاعتبار من ٣٣ - ٣٤ .

(٤) الجاحظ: الحيوان ج ٤ ص ٧٣.

(٥) المصدر السابق ج ٤ ص ٧٣.

الخارجية وإنما أيضاً الباطن أو الناحية النفسية. ويشير الجاحظ إلى الشبه بين القرد والإنسان في خصلتين كريمتين هما الزواج والغيره الجنسية قائلاً: "وأجتمع في القرد الزواج والغيره وهما خصلتان كريمتان واجتماعهما من مفاخر الإنسان على سائر الحيوان. ونحن لم نر وجه شيء غير الإنسان أشبه صورة وشبها على ما فيه من الاختلاف، ولا أشبه فما ووجهاً بالإنسان من القرد"(١).

وهكذا يتضح لنا من خلال حديث الجاحظ عن الحيوان أنه يشبه سلوك الحيوان بسلوك الإنسان، وأنه يعطى للحيوان وعيها شبهاً بواعي الإنسان، وأنه ينظر إلى الحيوان نظرة غائية، أي أنه يعطى لسلوك الحيوان غاية إنسانية وهدفاً محدداً بوعي(٢)، الأمر الذي يدل على مدى عمق وعي الجاحظ وأصالته العلمية، وريادته في العلوم التي هي من مستحدثات علوم العصر الحديث.

وقد آن لنا أن نتحدث عن الإنسان عند الجاحظ، فما هو الإنسان، وما مفهومه، وما العقل، وما النفس اللذان للإنسان؟ وهل عند الجاحظ نزعة إنسانية؟

(١) المصدر السابق ج٤، ص ٩٨.

(٢) موريس روكلن: تاريخ علم النفس، ترجمة على زيعور، دار الأندرس بيروت ١٩٧٨ ص ٤٩ وما بعدها.

الفصل السادس

الإنسان عند الجاحظ

أ - ما الإنسان؟

لقد حاول الجاحظ الإجابة عن هذا السؤال قائلًا بأن الإنسان عالم صغير، تشبيهًا له بالعالم الكبير "أو ما علمت أن الإنسان الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من أحطه، كما قال عز وجل: ﴿سُخِّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِبِيلٌ مِّنْهُ﴾؛ إنما سموه بالعالم الصغير سليل العالم الكبير، لما وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس، ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما تفتات البهيمة والسبع، ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد وغدر الذئب، وروغان الثعلب .. وسموه العالم الصغير لأنهم وجدوه يصور كل شيء بيده، ويحكي كل صوت بفمه. وقالوا: لأن أعضاءه مقسومة على البروج الإثنى عشر والنجوم السبعة، وفيه الصفراء وهي من نتاج النار، وفيه السوداء وهي من نتاج الأرض، وفيه الدم وهو من نتاج الهواء، وفيه البلغم وهو من نتاج الماء .. فجعلوه العالم الصغير، إذ كان فيه جميع أجزائه وأخلاته وطبعاته" (١).

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٢١٢ - ٢١٣.

فالإنسان عند الجاحظ هو العالم الصغير سليل العالم الكبير، لأنّه يصوّر بيديه كلّ صورة، ويحكى بفمه كلّ حكاية، ولأنّه يأكل النبات كما تأكل البهائم، ويأكل الحيوان كما تأكل السباع، وأنّ فيه من أخلاق جميع أنجاس الحيوان أشكالاً^(١) وأنّ جسمه يتكون من العناصر التي يتكون منها العالم وهي النار والتراب والماء والهواء.

ويأخذ الجاحظ بتعريف اسطو للإنسان فيقول: "حد الإنسان: الـهـيـ النـاطـقـ المـبـينـ"^(٢). فالعقل والقدرة على التفاهم بالكلام أهم ميزة ميز الله بها الإنسان على الحيوان وبه يعبر عن حاجاته. ومن هنا يبدو الإنسان للجاحظ حيواناً، ولكنه حيوان عاقل وناطق. ولذا كثيراً ما يلجاً الجاحظ للمقابلة بين الإنسان والحيوان؛ فيلاحظ - مثلاً - أن الجهاز الهضمي متشابه عند الإنسان والكلب^(٣). كما يلاحظ الجاحظ شبيهاً قوياً بين الإنسان والقرد في المظاهر الخارجي وبعض الصفات النفسية الباطنة. ولكن مع ذلك يبقى الفرق مائلاً بين الإنسان والحيوان، وهو

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٧٠.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٧ من ٤٩ والبيان والتبيين ج ١ ص ٧٧.

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٥.

فرق كبير وليس فرقا في الدرجة وإنما هو فرق في النوع أيضا، وذلك "لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكين، وحين فضله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة"(١). ومن أجل هذا نجد الجاحظ يرتب المخلوقات بحسب حظها من العقل، فأعلى الخلق منزلة الملائكة، ثم الإنسان، ثم الجن "وإنما صار لهؤلاء المزية على جميع الخلق بالعقل، وبالاستطاعة على التصرف، وبالمنطق"(٢).

غير أن هذا لا يعني أن الحيوان يخلو من المعرفة والقدرة على التعلم. فالجاحظ لا يفتئأ بوضوح هذه الظاهرة المدهشة عند الحيوان، وهي وجود المعارف الدقيقة الغريبة عنده. والفرق بين معارف الإنسان والحيوان هو أنها وليدة الغريزة عند الحيوان بينما هي وليدة الفكر عند الإنسان. يدل على ذلك أن الحيوان قد يعلم علما رائعا ويصنع بكفه صنعة قد يتفوق بها على الإنسان، ولا يهتدى إلى ما دون ذلك بطبيع أو رؤية. والجاحظ يشرح فكرته بقوله: "قد قلنا في أول هذا الجزء من القول في الحيوان في إحساس أجناسها المجعلة فيها وفي معارفها المطبوعة

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ من ٧٠.

(٢) المصدر السابق ج ١ من ١٧٠.

عليها، ومن أتعجب ما ركبت عليه من الدفع عن أنفسها والتقدم فيما يحبها وفي تحسسها عواقب أمورها وكل ما خوفت من حوادث المكره بقدر ما ينوبها من الآفات ويعتر بها من الحالات، وإنها تدرك ذلك بالطبع من غير رؤية، وبحس النفس من غير فكرة، ليعتبر معتبراً ويفكر مفكراً، ولينفِّي عن نفسه العجب ويعرف مقداره من العجز ونهاية قوته .. والإنسان ذو العقل والاستطاعة والتصرف والرؤية إذا علم بما غامضاً وأدرك معنى خفيماً لم يكُن يمتنع عليه ما دونه إذا قاس بعض أمره على بعض. وأجناس الحيوان قد يعلم بعضها شيئاً ويصنع بكفه صنعة يفوق بها الناس ولا يهدى إلى ما هو دون ذلك بطبيع ولا رؤية، وعلى أن الذي عجز عنه في تقدير العقول دون الذي قدر عليه" (١).

فالغريرة عند الحيوان تعمل إذن بدقة ولكن دون رؤية ووعي، بينما عقل الإنسان يعمل بروية وفكر وقياس ولكن بدقة أقل.

هذا ويرى الجاحظ أن آدم هو أصل البشر
أجمعين (٢).

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٧ ص ٧١ - ٧٢.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٠٤.

ب - العقل عند الجاحظ:

العقل هبة من الله عز وجل منحها للإنسان ليكون أداة للتفكير والاعتبار وبذلك تميز الإنسان على سائر الحيوانات. يقول الجاحظ متسائلاً: "فلم أعطاه العقل؟ إلا للاعتبار والتفكير؟"(١).

ويبحث الجاحظ عن مكان العقل في الإنسان، ولكنه يتطرق في ذلك بين رأيين: رأى يقول إن مركزه الدماغ والقلب طريق له، وأخر يقول إن القلب مركزه دون الدماغ(٢).

والإنسان يعلم، بوساطة العقل، الأشياء والظواهر التي تلتفتها حواس، ولا تفه سرها، ولكنه لا يعلم كيفية حدوث هذا العلم. ويعبر الجاحظ عن هذه الفكرة بقوله: "وأنا، جعلت فداك، أعلم أنى اسمع ولا أعقل كيفية السمع، وأعلم أنى أبصر ولا أعقل كيفية البصر"(٣). ويميز المراء، بوساطة العقل، بين الكلام الجميل والقبيح وبين الخير والشر، وبهذا يشبه العقال الذي يعقل البعير أو يمنعه من

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٧ من ٥٤٣.

(٢) الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير ص ٨٦.

(٣) المصدر السابق ص ٨٦.

الشروع(١).

ومن هنا يصبح العقل وسيلة الروية الباطنية للأشياء على عكس الحواس التي تمد الإنسان بالرؤية الخارجية. ومن ثم كان العقل أعلى مرتبة وأثبت حجة ووجب الركون إليه أكثر من الحواس "فلا تذهب إلى ما يريك العين، واذهب إلى ما يريك العقل. وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقل، والعقل هو الحجة"(٢) فالعقل حاكم على الحس في رأي الجاحظ.

ولكن كيف يقوم العقل بعمله؟ إن عمل العقل يسمى التفكير، والتفكير يؤدي إلى المعرفة وفهم الحقائق، وأهم طرق التفكير الحس والقياس. وقد عبر الجاحظ عن هذا بقوله: "سئل بعض الأعراب عن العقل، قال: الإصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن بما قد كان"(٣).

(١) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان ضمن رسائل الجاحظ ج. ١ ص ١٤١.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج. ١ ص ٢٠٧.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ج. ٤ ص ١٢٩.

وقد يتساءل الإنسان: متى يوجد العقل في الإنسان؟ وهل يولد معه أم يكتسب اكتساباً؟ يجيب الجاحظ: إنه ملكة تولد مع صاحبها. فقد قبيل لرجل من الحكماء: متى عقلت؟ قال: ساعة ولدت. فلما رأى إنكارهم لكلامه قال: أما أنا فقد بكت حين خفت، وطلبت الأكل حين جعت، وطلبت الثدي حين جعت، وسكت حين أعطيت" (١).

والعقل، على الرغم من أنه يولد مع الطفل، إلا أنه يحتاج إلى تعهد ومعالجة وتربيبة لكي ينمو ويقوى. وإذا أهمل ضعف وانحراف وأصيب بالعطل، وعندئذ يصعب تقويمه ويعضل علاجه. إن العقل في نظر الجاحظ "أطول رقدة من العين، وأحوج إلى الشحذ من السيف، وأفقر إلى التعهد وأسرع إلى التعبير، وأدواؤه أقتل وأطباؤه أقتل وعلاجه أعضل" (٢).

ويرى الجاحظ أن الحرية مبدأ مهم لابد من توافره حتى يستطيع العقل القيام بعمله على الوجه الأكثر فائدة. ويعبر عن هذا المبدأ المهم بقوله:

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٧ ص ٥٦.

(٢) الجاحظ: رسالة التربية والتدوير ص ١٠١.

"إن العقل إذا أكره عمي" (١). فالإنسان إذا حرم من جو الحرية وجثم على عقله الإكراه والاستبداد انشل تفكيره. وإذا فكر جاء تفكيره معوجاً ومنحرفاً وغير مستقيم.

والحق أن الجاحظ - بقراره لمبدأ الحرية العقلية والفكرية - يكون رائداً لمعركة حرية الفكر التي تدور رحاها اليوم في العالم سابقاً بذلك عصره ومؤكداً على أن الحرية بالنسبة إلى العقل كالنور بالنسبة إلى العين.

على أن الجاحظ يميز بين نوعين من العقل: هما العقل الغريزى المطبوع، والعقل المكتسب. وبهذا التمييز يكون سابقاً على الفلسفه المسلمين الذين آتوا بعده، من أمثال الفارابي وأبن سينا وأبن رشد. إن العقل الأول يولد مع الإنسان ويشكل غريزة أو استعداداً طبيعياً، أما العقل الثاني فإنه يتكون من التجارب التي يمر بها الإنسان في حياته ويكتسب بالتعلم والتثقيف. أما العلاقة بينهما فهي أشبه بعلاقة الآلة بالمادة التي تستخدمها في أداء وظيفتها. العقل الغريزى يشبه المصباح والعقل المكتسب يشبه الدهن: المصباح هو الآلة والدهن هو

(١) الجاحظ: الحيوان ج٤ ص ٤٥٢ .

المادة. يقول الجاحظ: "وقد أجمعـتـ الحـكمـاءـ أنـ العـقـلـ المـطـبـوعـ وـالـكـرـمـ الـغـرـيـزـىـ لـاـ يـبـلـغـانـ غـاـيـةـ الـكـمـالـ إـلاـ بـمـعـاـونـةـ الـعـقـلـ الـمـكـتـسـبـ،ـ وـمـثـلـواـ ذـلـكـ بـالـنـارـ وـالـحـطـبـ،ـ وـالـمـصـبـاحـ وـالـدـهـنـ.ـ وـذـلـكـ أـنـ الـعـقـلـ الـغـرـيـزـىـ آـلـهـ وـالـمـكـتـسـبـ مـادـةـ،ـ وـإـنـمـاـ الـأـدـبـ عـقـلـ غـيرـكـ تـرـيـدـهـ فـيـ عـقـلـكـ" (١).

ولعل الجاحظ يقصد بهؤلاء الحكماء فلاسفة اليونان وبخاصة أرسطو الذي ميز بين عقل بالقوة، وعقل بالفعل أو بالملائكة، وعقل فعال. وقد تبنى الفارابي هذا التقسيم الوارد عند أرسطو، حيث يرى أن العقل بالقوة هو العقل الهيولاني، وهو هيئة ما في مادة معدة لأن تقبل صور المعقولات. ومتى حصلت المعقولات في العقل بالقوة يصبح عقلا بالفعل بعد أن كان عقلا بالقوة. والعقل الفعال هو الذي ينقل العقل بالقوة إلى عقل بالفعل، وهذا العقل الفعال هو ذات ما، جوهره عقل ما بالفعل ومفارق المادة. ومنزلة العقل الفعال من العقل الهيولاني كمنزلة الشمس من

(١) الجاحظ: رسالة المعد والمعاش، ضمن رسائل الجاحظ ج ١ من

البصر. ومرتبة العقل الفعال من الأشياء المفارقة المرتبة العاشرة (١)، بحسب نظرية الفيض.

ويلاحظ أن الفارابي قد جعل العقل الفعال خارج النفس، وهذا مالم يقل به أرسطو (٢). ولم يوضح العلاقة بين العقل بالقوة والعقل بالفعل على النحو الذي أوضحه الجاحظ، بل قال إن العقل بالفعل هو العقل بالقوة ذاته بعد حصول المعقولات فيه. ولعل ابن سينا قد نظر إلى التشبيه الذي ورد عند الجاحظ ولكنه لم يأخذ به، وإنما أخذ بالتشبيه الوارد في الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ نَسُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ هُنَّا مِثْلُ نُورِهِ كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مَصَبَّاحٌ، الْمَصَبَّاحُ فِي زَجَاجَةٍ، الزَّجَاجَةُ كَانَهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْلَمْ تَعْسِسْهُ نَارٌ﴾ (٣).

وجعل العقل بالقوة أو العقل الهيولاني قوة

(١) الفارابي: آراء أهل المدينة القاضلة، دار المشرق بيروت ١٩٧٣
ص ٦٢، ٦١ - ١٠٢.

(٢) ابن رشد: تلخيص كتاب النفس لأرسطو، النهضة المصرية،
القاهرة ١٩٥٠ ص ٨٥.

(٣) سورة التور، الآية ٣٥.

من قوى النفس مستعدة لقبول المعقولات وشبهه بالمشكاة. النفس مستعدة لقبول المعقولات وشبهه بالمشكاة. وجعل العقل بالفعل قوة أخرى في النفس قد حصلت في المعقولات المكتسبة وشبهه بالمصباح. وبين العقل الهيولاني والعقل بالفعل يوجد العقل بالملكة وهو الذي لا توجد فيه سوى المعقولات الأولى وشبهه بالزجاجة الشريفة. أما العقل الفعال فهو الذي يخرج العقل بالقوة إلى عقل بالملكة وعقل بالفعل وقد شبهه بالنار (١).

والحق أن نظرة الجاحظ إلى العقل تعد أكثر واقعية من نظرتي الفارابي وأبن سينا، إذ ليس في الإنسان سوى عقل واحد، ولا يوجد خارجه أى عقل على الإطلاق.

هذا ويرى الجاحظ أن عقول معظم الناس متقاربة، إلا فيما ندر، حيث نجد بعض الأفراد ترجح عقولهم على الآخرين. وهو بهذا سابق على الفلسوف الفرنسي "ديكارت" الذي كان يرى أن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس بالتساوي. يقول

(١) ابن سينا: الإشارات والتبيينات، دار المعرف بمصر، ١٩٦٠، ج ٢ من ٣٦٣ - ٣٦٧.

الجاحظ: "ونكر صالح بن سليمان، عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث قال: ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض إلا ما كان من الحاج بن يوسف، وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجع على عقول الناس كثيرا" (١).

ج - النفس الإنسانية عند الجاحظ:
بتواضع العالم يقر الجاحظ بأن مصادره عن النفس قليلة، وأنه لم يقرأ عن هذا الموضوع المجلدات الكثيرة، كما نراه يهاجم المتكلمين الذين بحثوا موضوعها واتهمهم بالفضول والجهل بأنهم يريدون أن يعلموا كل شيء ويأتى الله ذلك (٢).

وهناك رأى طريف في النفس ينسبه الجاحظ إلى متكلم جليل رئيس، يشير لديه الاستغراب والدهشة، خلاصته أن النفس من جوهر النسيم أو الهواء، وأن النفوس المتفرقة في الأجرام الحيوانية ليست سوى أجزاء من النسيم. وحكم النفوس في علاقتها مع الهواء الخارجي الذي يملأ الفضاء حكم

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٤ ص ٣١٩ .

الأشعة المذبقة عن قرص الشمس وهذه النفوس تغادر الأجسام وتقطع إلى أصلها أي الهواء إذا سدت منافذ الجسم كما ينقطع الضوء بالطفرة إلى عنصره من قرص الشمس إذا سدت الكوة التي ينفذ منها الشعاع إلى داخل المكان (١).

ويبدو أن هذا المتكلم الجليل الرئيس هو "النظام" على الأرجح لأنه صاحب نظرية الطفرة، ولأن هذا التشبيه القائم على علاقة الشعاع بقرص الشمس قد عزاه الجاحظ إلى النظام في معرض الكلام عن كمون النار، وليس هذه هي المرة الأولى التي يخالف فيها الجاحظ أستاذه، فلقد عارضه في آراء كثيرة.

والحق أن هذا الرأي يجعل النفس جوهراً مادياً، ويلتقي فيه مع صاحبه "ديموقريطس" الذي قال إن النفس مولفة من أدق الجواهر وأسرعها حركة، وهذه الجواهر منتشرة في الهواء يدفعها إلى الأجسام فتتغلغل في البدن كله وتتجدد بالتنفس في كل آن، وتدوم الحياة ما دام التنفس.

ويستعمل الجاحظ كلمة "نفس" بمعنى الذات

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١١٢ - ١١٣ .

في قوله: "إن الظربان إذا أراد أن يأكل حسنة
الضب، والضب نفسه، اقتحم حجر الضب
مستديراً" (١).

كما يستعملها بمعنى القوة الشهوانية طبقاً لما
جاء في قول الحسن البصري: "أقعدوا هذه النفوس
فيها طلعة، واعصوها فإنكم إن أطعتموها تتزع بكم
شر غالية، وحدثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور" (٢).
والنفس عند الجاحظ هي مركز الحاجات
التي يشعر بها الإنسان، كالحاجة إلى الغذاء، وال الحاجة
إلى الطمأنينة، وال الحاجة إلى الجنس، وال الحاجة إلى
اليقين والمعرفة. وفي النفس قوى تعمل على تلبية
هذه الحاجات (٣).

إن أهم قوى النفس هي الإحساس والعقل
والذاكرة والنطق، يقول الجاحظ: "تأمل هذه القوى
التي في النفس وموقعها من الإنسان، أعني الفكر
والوهم والعقل والحفظ وسائر ذلك.. فكر فيما أنعم
الله على الإنسان من هذا المنطق الذي يعبر به عمـا

(١) المصدر السابق ج ٦ ص ٤٨ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٠ .

(٣) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ١٠٨ - ٢١٤ .

يضرره ويفهم عن غيره ما في نفسه، ولو لا ذلك كان
بمنزلة البهيمة التي لا تخبر عن نفسها بشيء ولا
تفهم عن مخبر شيئاً^(١).

والجاحظ يجعل الحواس خمساً، شأنه في ذلك
شأن القدماء من الفلاسفة اليونان وهي: البصر
والسمع والشم والذوق واللمس، إلا أن الجاحظ
يتوقف عند فكرة مهمة وهي تخصيص الحواس
بالمحسوسات بحيث يقصر كل حاسة على محسوس
معين تعمل فيه ولا تستطيع أن تتعداه إلى محسوس
آخر. وهو يقطع بأنه لا يمكن أن تكون في العالم
أشياء لا ندركها بالحواس لأنها إذا وجدت، تكون
فضلاً لا معنى له، وليس في الخلقة شيء لا معنى
له^(٢).

ويشير الجاحظ إلى قانون عتبة الإحساس أو
الحد الذي ضمته تقويم الحواس بعملها فتدرك
المحسوسات، فإذا تجاوزت هذا الحد لم تعد تدرك.
وهذا هو ما عبر عنه الجاحظ بقوله: "إن لكل حاسة
قوة، فإذا امتلأت تلك القوة من محسوسها، لم تجد

(١) الجاحظ: الدلائل والاعتبار ص ٨.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ - ٤٨.

وراءها طعماً ولا ريحًا، وعاد عليها بالضرر.
في بعض النظر يعمى، والصوت الشديد يصم،
والرائحة المنتنة تبطل الشم، والأطعمة الحارة
المحرقة تبطل حاسة اللسان^(١).

ويرى الجاحظ أن الحواس جنس واحد،
فحسنة البصر من جنس حاسة السمع وسائر
الحواس، لأن النفس هي المدركة وإدراكها يتم من
خلال هذه النوافذ التي تسمى بالحواس.

ولكن لماذا اختلفت الحواس فصار واحد منها
سمعاً والأخر بصرًا والثالث شمًا؟ وهكذا. يجب
الجاحظ على ذلك بأن اختلف الحواس إنما يرجع
إلى ما مازجها من الموضع أو الشوابئ، فمثلاً لا
يدرك البصر الأصوات لأن شائبه من جنس الزجاج
الذي يمنع من درك الصوت ولا يمنع من درك
اللون.

ويفرق الجاحظ بين ثلاثة أنواع من
المحسوسات؛ فهناك محسوسات متضادة كالسوداد
والبياض، ومحسوسات مختلفة كالطعم واللون،

(١) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ضمن رسائل الجاحظ
ج ١ ص ١٤١ .

ومحسوسات متفقة^(١).

وهناك جانب مهم يتعلق بالنفس عند الجاحظ، هذا الجانب هو القدرة الفائقة التي تتمتع بها الجاحظ على تحليل النفس الإنسانية. تلك القدرة التي نراها في أماكن عديدة من كتبه ورسائله. ففي كتاب البخلاء - مثلاً - يصف الجاحظ دوافع البخل والجود عند الناس، فيعمد إلى سرد نوادر وأخبار عديدة عن الأشخاص تصف حركاتهم وتصرفاتهم وطرائق تفكيرهم، ومشاعرهم، ومختلف الحال التي يلجاون إليها لجمع المال ومنعه، وكيف ينظرون إلى الأمور ويحكمون عليها. ويلجأ الجاحظ إلى طريقة أخرى غير النوادر والأخبار لتصوير نفسية البخلاء، وهي الاحتجاجات التي تعكس مناهج التفكير عند هؤلاء الناس. وهو يعزز هذه الاحتجاجات إلى مفكرين مشهورين من أمثال الفيلسوف الكندي وسهل بن هارون وغيرهم. ونجد في رسالة أخرى يصف ذلك الصراع الذي يتعمل في نفس الإنسان بين الهوى

(١) الأشعري: مقالات المسلمين، النهضة المصرية، القاهرة
١٩٦٩، ج ٢ ص ٣٣ - ٣٤.

الذى يدفعه إلى إذاعة السر، والعقل الذى يصده عن ذلك، فيقول: "إنه لا شيء أصعب من مكافحة الطبائع ومغالبة الأهواء، فإن الدولة لم تزل للهوى على الرأى طوال الدهر. والهوى هو الداعية إلى إذاعة السر، وإطلاق اللسان بفضل القول"(١).

والعقل إنما سمي عقلاً - كما يقول الجاحظ - لأنه يقيد اللسان ويعقله عن الجهر بالكلام المضر كما يحجر عن الصغير وكما يعقل البغير. وهو يشبه اللسان بالترجمان عن القلب، ويشبه القلب بالخزانة التي تحفظ الأسرار وتصونها، وتختزن ما يعيه الإنسان من الحواس من خير وشر وما تولده الشهوات والأهواء وما تنتجه المعارف والعلوم.

ولكن القلب ينزع إلى التخلص مما فيه والإففاء به: "وكأنه يضيق بما ينطوى عليه ويستقل ما حمل منه، فيستريح إلى نبذه ويلذ إلقائه على اللسان، ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يفضي به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه. كل ذلك ما دام الهوى مستولياً على

(١) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ضمن رسائل الجاحظ، ج ١ ص ١٤١ .

اللسان، فإذا قهر الرأى الهوى فاستولى على اللسان، منعه من تلك العادة ورده عن تلك الدرة وجسمه مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة^(١).

إن اللسان في حد ذاته ليس سوى أداة للتعبير عن الضمير، فهو لا يستحق المدح أو الذم، وإنما الحمد للحلم واللوم على الجهل. وهكذا يكون الحلم الاسم الجامع لكل فضل، وهو سلطان العقل القاهر للهوى وتداعياته.

إن ميل الإنسان إلى الإقصاء بما يزخر به صدره من الأخبار شيء طبيعي فطر عليه، ومن هنا كانت حلاوة الأخبار والاستخبار عند الناس وهذا هو أساس ما جبل عليه البشر من نقل الأخبار عن الماضيين إلى الباقيين، وعن الغائبين إلى الشاهدين. وبهذا ثبتت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء، ولم يحضر آيات الرسل، وقام مجيء الأخبار عن غير شاعر ولا تواترًّاً مقام العيان، وعرفت البلدان والأقطار^(٢).

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ضمن رسائل الجاحظ ج ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ .

ومن هنا فقد عسر على الإنسان كتمان السر بسبب طبيعته هذه، حتى ليغشاه الحزن والهم من كتمان السر، ويعتريه كمد وسقم يحس به في سويداء قلبه يشبه دبيب النمل وحكة الجرب ولسع الدبر. وما يؤيد هذا الرأي ما يروى عن الأعمش (١٨٨هـ) المحدث المعروف أنه كان لضيق صدره بما فيه من الأخبار، وعدم قدرته على البوح بها يقبل على شاة كانت له، فيحدثها بالأخبار والفقه حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول: "ليت أني كنت شاة الأعمش" (١).

ونجد تلك القدرة على تحليل النفس الإنسانية، والحرص على كشف أعمق الإنسان في رسالة أخرى للجاحظ، حيث يعقد أبو عثمان مقارنة بين هذين الميليين من ميول النفس البشرية وهما العداوة والحسد فيرى أن العداوة تقترب بالعقل الذي يرسوسها، أما الحسد فلا يواكب العقل. والحسد يبدأ بالأننى أما العداوة فتبدأ بالأبعد. والحسد يستمر ما دام المحسود، أما العداوة فتحدث لعلة وتزول بزوال

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥.

ذلك العلة، والعداوة تضعف وتخلق وتمل، أما الحسد فيظل غضباً جديداً لا يبيد. والحسد آلم وأذى من العداوة، وهو ناتج عن فساد الطبيع واعوجاج التركيب واضطراب النفوس. والحسد أخ الكذب فهما لا يفتران، أما العداوة فقد تخلو من الكذب. والحسد أفسى في أهل العلم، وحسد الجاهل أهون من حسد العارف الفطن^(١).

ويظهر أن كلام الجاحظ في هذا الموضوع صادر عن تجربة مرت به؛ فهو يقول إن كثيراً من الكتاب حسدوه على إنتاجه، وراحوا يقللون من شأنه والحق أن للجاحظ لفتات نفسية رائعة منها أنه قد لاحظ أن الفساد أسرع إلى الناس من الصلاح، فلو "جالست الجهال والنوكى والسففاء والحمقى شهراً فقط لم تدق من أوضار كلامهم، وخيال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهراً، لأن الفساد أسرع إلى الناس، وأشد التحاماً بالطبع"^(٢).

(١) الجاحظ: فصل ما بين العداوة والحسد، ضمن رسائل الجاحظ ج ١ ص ٣٣٧ - ٣٧٣.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٨٦.

د - الإنسان كائن اجتماعي:

الإنسان عند الجاحظ كائن اجتماعي، والمجتمع ضرورة له. يقول الجاحظ: ثم اعلم رحمة الله تعالى - أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم، وخلقية قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزيلهم، ومحيطة بجماعتهم، ومشتملة على أذناهم وأقصاهم، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم - مما يعيشهم ويحيطهم، ويمسك بأرماقهم، ويصلح بهم، ويجمع شملهم، وإلى التعاون في درك ذلك، والتوازن عليه - ك حاجتهم إلى التعاون على معرفة ما يضرهم، والتوازن على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تغب عنهم؛ فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد لاحتياج الأنسي إلى معرفة الأنصي، واحتياج الأنصي إلى معرفة الأنسي؛ معان متضمنة وأسباب متصلة، وحال منعقدة. وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا، ك حاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم وحاجة من يكون بعدها إلى أخبارنا؛ ولذلك تقدمت في كتاب الله البشرات بالرسل، ولم يسخر لهم جميع خلقه، إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه. وجعل

الحاجة حاجتين: إحداهما قوام وقوت، والأخرى لذة وإمتاع وازدياد في الآلة، وفي كل ما أجمل النفوس، وجمع لهم العتاد. وذلك المقدار من جميع الصنفين وفقاً لكثرة حاجتهم وشهواتهم، وعلى قدر اتساع معرفتهم وبعد غورهم، وعلى قدر احتمال طبع البشرية وفطرة الإنسانية. ثم لم يقطع الزيادة إلا لعجز خلقهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجز، إلا بعدم الأعيان، إذ كان العجز صفة من صفات الخلق، ونعتا من نعمت العبيد.

لم يخلق الله تعالى أحداً يستطيع بلوغ حاجته بنفسه، دون الاستعانة ببعض من سخر له، فأنناهم مسخر لأقاصاهم، وأجلهم ميسر لأنهم، وعلى ذلك أحوال الملوك إلى السوق في باب، وأحوال السوق إلى الملوك في باب، وكذلك الغنى والفقير، والعبد وسيده. ثم جعل الله تعالى كل شيء للإنسان خولاً، وفي يده مذلاً ميسراً، إما بالاحتياط له والتاطف في إراغته واستعماله، وإما بالصولة عليه، والفتوك به، وإنما أن يأتيه سهواً ورهواً. على أن الإنسان لولا حاجته إليها لما احتل لها، ولا صل عليها. إلا أن الحاجة تفترق في الجنس والجهة والجبلة وفي الحظ

والتقدير. ثم تبعد الإنسان بالتفكير فيها، والنظر في أمورها، والاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم وبين معرفة تلك الحكم الشرفة، وتلك الحاجات الازمة بالنظر والتفكير، وبالتقريب والتقيير، والتبثت والتوقف؛ ووصل معارفهم بواقع حاجاتهم إليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها.

وهو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم، ومعبراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرفاً لمواضع سد الخلية ورفع الشبهة، ومداواة الحيرة، ولأن كثرة الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح المائمة، والأجسام الجامدة والأجرام الساكنة، التي لا يتعرف ما فيها من دقائق الحكمة وكنوز الآداب، وينابيع العلم إلا بالعقل الناقد اللطيف، وبالنظر التام النافذ، وبالأدلة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكره الفكرة، والاحتراس من وجوه الخداع والتحفظ من دواعي الهوى؛ ولأن الشكل أفهم عن شكله، وأسكن إليه وأصب به. وذلك موجود في أناس البهائم، وضرروب السباع. والصبي عن الصبي أفهم له، وله ألف وإليه أثر، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لنبيه صلى

الله عليه وسلم: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَنَا مُلْكًا لِجَعَلَنَا رَجُلًا﴾
لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطبعه آنس،
وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه.

ثم لم يرض لهم من البيان بصنف واحد، بل
جمع ذلك ولم يفرق، وكثير ولم يقل، وأظهر ولم
يخف، وجعل آلة البيان التي بها يتعرفون معانيهم،
والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم، في
أربعة أشياء، وفي خصلة خامسة، وإن نقصت عن
بلغة هذه الأربعة في جهاتها، فقد تبدل بجنسها الذي
وضعت له وصرفت إليه، وهذه الخصال هي: اللفظ،
والخط، والإشارة، والعقد؛ والخصلة الخامسة ما
أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة ووضوح
البرهان، في الأجرام الجامدة والصامتة والساكنة
التي لا تنتين (لا تفهم) ولا تحس، ولا تفهم ولا
تحرك إلا بداخل يدخل عليها، أو عند ممسك خلي
عنها، بعد أن كان تقييده لها.

ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصل
الموجودات، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة
للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد،
إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر

نصيب اللامس؛ وجعل الخط دليلا على ما غاب من
حوائجه عنه، وسببا موصولا بينه وبين أحواله؛
وجعله خازنا لما لا يأمن نسيانه، مما قد أحصاه
وحفظه، وأنقذه وجمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم
 يجعل للشام وللذايق نصيبا" (١).

هـ النزعة الإنسانية عند الجاحظ:
لا شك أن اهتمام الجاحظ بالانسان يوضح لنا
أن النزعة الانسانية مائلة عنده ومتوافرة.

وهي تظهر لنا في تناوله مختلف فئات الناس
بالمراقبة والتأمل والدراسة، فالجاحظ يتكلّم عن
الملوك والولاة والكتاب والحساب والقواد، كما
يتحدث عن المعلمين والتجار وال وكلاء والمغنيين
والقضاة والأطباء والعطارين والوراقين، وسائر
 أصحاب الحرف والمهن. ويدرس أصحاب العاهات
والمنحرفين أخلاقيا كالاصوص والقحاص واللاتحة
والبرصان والعرجان والعميان والحولان والطفيليين
والبخلاء. ولا ينسى أعراق الناس وأجناسهم، فيبحث

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٤٢ - ٤٦.

في فصل ما بين الرجال والنساء والفرق بين الذكر والأنثى، وفي السودان والبيضان، وفي العرب والعجم والترك، وفي الموالى والمسادة، وفي الصرحاء والهجناء، وفي الشعوبية وغير ذلك.

كما تتجلى النزعة الإنسانية – أيضاً – في العناية بتحليل نفسية الإنسان، كما ذكرنا من قبل، والغوص في أعماقها لمعرفة الميل الدفين والغرائز الفطرية والدوافع التي تحرك الإنسان وتحدد سلوكه وطباعه.

وتظهر النزعة الإنسانية لدى الجاحظ في الحديث عن المكانة التي تبوأها الإنسان في سلم المخلوقات. فالإنسان في نظر الجاحظ سيد مخلوقات هذا العالم، وقد سخر لها الله تعالى له، تعمل لخدمته، وأبيح له التصرف فيها والاستمتاع بخيرات الأرض جمِيعاً. وقد تميز الإنسان ببهبة عظيمة منحه الله ليابها، وهي العقل الذي يعرف به نفسه والعالم والله تعالى. وما عليه إلا أن يشكر الله على تلك المنحة ويستغلها خيراً استغلال، فينظر ويتأمل ويعرف ويعتبر (١). وكيف لا "والفلك وجميع ما تحتويه

(١) الجاحظ: الدلائل والاعتبار ص ٨ .

الأرض، وكل ما تقله أكتافها للإنسان خول ومتاع
إلى حين" (١).

كذلك تظهر النزعة الإنسانية عند الجاحظ في
الدعوة إلى التسامح بين أبناء الأمم المختلفة، حيث
دعا الجاحظ إلى نبذ العصبيات القومية، وإلى التعاون
والمحبة بين الشعوب المختلفة الأعراق واللغات
والمذاهب والتقاليد، لأن الذي يجمع الناس أكثر مما
يفرقهم، وهم يرتبطون جميعاً برابطة الانتساع إلا
النوع الإنساني، وكلهم مخلوقات الله عز وجل.

لقد وردت هذه الأفكار في أماكن عده من
كتب الجاحظ ورسائله ولا سيما كتاب "البيان
والتبين" في سياق رده على الشعوبية، وفي رسالة
"مناقب الترك وعامة جند الخلافة". وهناك ملامح من
النزعة الإنسانية عند الجاحظ نجدها في نظرته إلى
الجمال و موقفه من المساواة بين المرأة والرجل
وحملته على النساء .

وإذا كان المفكرون الأخذون بالاتجاه
الإنساني، قد أهملوا العلوم الطبيعية واهتموا بالعلوم

(١) الجاحظ: كتاب البيان، رسائل الجاحظ ج ٢ ص ١٤٦ .

الإنسانية كالأدب والفلسفة والدين والأخلاق والتاريخ والخطابة واللغة، فإن الجاحظ قد اهتم مثلكم بالانسان وبهذه العلوم التي تهدف إلى تعمية قواه العقلية والجسدية وتقويم أخلاقه وإيهاف حسه الجمالى، ومع ذلك اعنى بالطبيعة وعلومها. وباختصار لقد عرف الجاحظ كيف يوفق بين النزعة الإنسانية والنزعة الطبيعية، مع اهتمامه بمحاجمة الأوهام والأساطير ودعوته إلى الشك في الأخبار وإلى تحكيم العقل والمنطق، ونقده لشيوخ الفرق الإسلامية من شيعة وخوارج ومرجئة، ومحاولاته إقامة الدين الإسلامي على فكرة العناية أو الحكمة الإلهية التي تتجلى بأوضح معانيها في الطبيعة ولا سيما الحيوانات بجميع أنواعها. غير أن الجاحظ لم يتصور الإنسان عالما مطلقا في حد ذاته كما هو الحال عند الإنسانيين المحدثين، وإنما هو خاضع لقدرة الله ومشيئته. فرحم الله الجاحظ ذلك المفكر العملاق، وصاحب النزعة الإنسانية.

فهرس المصادر والمراجع

(مراجع فيه حذف الألف واللام وابن وأبو).

١ - إخوان الصفا: رسائل طبعة ١٣٠٥ هـ.

٢ - أرسسطو: المنطق، تحقيق الدكتور عبد الرحمن

بدوى، القاهرة ١٩٤٨ م.

٣ - أرسسطو: طباع الحيوان، ترجمة يحيى بن
البطريق، تحقيق الدكتور عبد الرحمن
بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧ م،
(ويضم الكتاب المقالات العشر الأولى).

٤ - أرسسطو: أجزاء الحيوان، ترجمة يحيى بن
البطريق، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى،
وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨ م. (ويضم
الكتاب المقالات من الحادية عشرة إلى
الرابعة عشرة).

٥ - أرسسطو: كون الحيوان، ترجمة يحيى بن
البطريق، تحقيق يان بروخمان، مؤسسة دى
فوى ليدن، ١٩٧١ م، (ويضم الكتاب
المقالات الخمس الأخيرة).

٦ - الأشعري (أبو الحسن): مقالات الإسلاميين،
استانبول ١٩٣٠، والقاهرة ١٩٦٩ م.

- ٧ - أمين (أحمد): ضحى الإسلام، الطبعة السادسة،
القاهرة ١٩٧١.
- ٨ - بدوى (عبد الرحمن): شروح على أرسسطو
مفقودة في اليونانية ورسائل أخرى،
دار المشرق، الطبعة الأولى بيروت،
١٩٧٢ م.
- ٩ - البغدادي (أبو البركات): المعتبر في الحكمة،
جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد
الدكن ١٣٥٨ هـ.
- ١٠ - البغدادي (الخطيب): تاريخ بغداد، مكتبة
الخانجي، القاهرة ١٩٣١ م.
- ١١ - البغدادي (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق،
دار الأفاق، بيروت ١٩٧٣ م.
- ١٢ - ببنيس (س.) : مذهب النزرة عند المسلمين
وعلاقته بمذاهب اليونان والهندوس، ترجمة
الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة
١٩٤٦ م.
- ١٣ - التوحيدى (أبو حيان): المقابلات، تحقيق
حسن السندي، القاهرة ١٩٢٩.
- ١٤ - التوحيدى (أبو حيان): الامتناع والمؤانسة.

- ١٥ - **الجاحظ** (أبو عثمان عمرو بن بحر): **آثار الجاحظ**، تحقيق عمر أبو النصر، بيروت، ١٩٦٩م.
- ١٦ - **الجاحظ** (أبو عثمان عمرو بن بحر): **البرصان والعرجان والعميان والحوالان**، دار الإعتصام، القاهرة.
- ١٧ - **الجاحظ**: (أبو عثمان عمرو بن بحر): **البيان والتبيين**، دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٦٧م.
- ١٨ - **الجاحظ**: (أبو عثمان عمرو بن بحر): **الستربيع والتدوير**، تحقيق فوزي عطوى، بيروت ١٩٦٩م.
- ١٩ - **الجاحظ**: (أبو عثمان عمرو بن بحر): **البخلاء**، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.
- ٢٠ - **الجاحظ**: (أبو عثمان عمرو بن بحر): **الحيوان**، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى الحلبى، القاهرة ١٩٤٥.
- ٢١ - **الجاحظ** (أبو عثمان عمرو بن بحر): **رسائل الجاحظ**، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون،

- مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٦٥ م.
- ٢٢ - **الجاحظ** (أبو عثمان عمرو بن بحر): المختار في الرد على النصارى، تحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوى، القاهرة.
- ٢٣ - **الجاحظ** (أبو عثمان عمرو بن بحر): الدلائل والاعتبار على الخلق والتبيير، المطبعة العلمية، حلب، ١٩٢٨ م.
- ٢٤ - **جبرى (شفيق)**: الجاحظ، مجلة المجمع العلمى العربى، دمشق.
- ٢٥ - **الحاجرى (طه)**: الجاحظ: حياته وآثاره، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م.
- ٢٦ - **الحسينى (د. أحمد حساد)**: كتاب الحيوان للجاحظ، مجلة تراث الإنسانية القاهرة ١٩٦٤ م.
- ٢٧ - **خليفة (حاجى)**: كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، المطبعة الإسلامية، طهران ١٣٧٨ هـ.
- ٢٨ - دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، المجلد السادس.
- ٢٩ - **دارون (تشارلز)**: أصل الأنواع، ترجمة

- إسماعيل مظہر، بیروت ۱۹۷۳م.
- ۳۰ - دی بور: تاریخ الفلسفۃ فی الإسلام، ترجمة الدكتور محمد عبد الہادی أبو ریدة، القاهرة ۱۹۵۴.
- ۳۱ - الرازی (أبو بکر): رسائل فلسفیة، دار الآفاق، بیروت، ۱۹۷۷م.
- ۳۲ - ابن رشد: تلخیص کتاب النفس لأرسسطو، النهضة المصرية، القاهرة ۱۹۵۰م.
- ۳۳ - ابن سینا: الإشارات والتبيهات، دار المعارف بمصر ۱۹۶۰م.
- ۳۴ - الشهريستاني: الملل والنحل، مصطفی البابی الطبی، القاهرة ۱۹۶۱م.
- ۳۵ - عبد العليم (د. أنسور): قصة التطور، دار القلم، القاهرة.
- ۳۶ - عزام (د. محفوظ): نظرية التطور عند مفكري الإسلام، دار الهدایة، القاهرة ۱۹۸۶م.
- ۳۷ - عفیفی (د. محمد الصادق): تطور الفكر العلمی عند المسلمين، القاهرة ۱۹۷۷م.
- ۳۸ - الفارابی: آراء أهل المدينة الفاضلة، دار

- الشرق، بيروت ١٩٧٣.
- ٣٩ - فرج (د. حسين) وأخر: دراسات في علم الحيوان وراثة التاريخ الطبيعي، القاهرة، ب.
- ٤٠ - ابن قتيبة: عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٣ م.
- ٤١ - الفزويسي: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٠ م.
- ٤٢ - كرم (يوسف): الطبيعة وما بعد الطبيعة، الطبعة الثالثة، القاهرة.
- ٤٣ - محجوب (فاطمة): دائرة معارف الشباب، الطبعة الأولى، القاهرة.
- ٤٤ - ابن المرتضى: طبقات المعتزلة بيروت، ١٩٦١ م.
- ٤٥ - المسعودى: مروج الذهب، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٣ م.
- ٤٦ - موريس روكلن: تاريخ علم النفس، ترجمة على زيعور، دار الأندلس، بيروت ١٩٧٨ م.

- ٤٧ — الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، القاهرة.
- ٤٨ — ميللي (الدو): العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الترجمة العربية، القاهرة ١٩٦٢م.
- ٤٩ — ابن نباتة: سرح العيون بشرح رسالة ابن زيدون، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٣٤م.
- ٥٠ — الهاشمي (د. محمد يحيى): تطبيق رأى الجاحظ في الطيور المهاجرة، مجلة الثقافة العدد ٢٨٠، السنة السادسة، القاهرة ١٩٤٤م.
- ٥١ — هويدى (د. يحيى): محاضرات في الفلسفة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦م.

الفهرس

الصفحة

الموضوع

المقدمة	٥
الفصل الأول: مكانة الجاحظ ومنهجه... .	٩
أ - مكانة الجاحظ العلمية والفكرية.	١١
ب - قواعد المنهج عند الجاحظ....	١٩
الفصل الثاني: جوانب الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ.....	٣١
الفصل الثالث: الجماد (الموات).....	٤٩
أ - معنى الجماد.....	٥١
ب - الجزء الذي لا يتجزأ.....	٥٢
ج - الجوهر والعرض.....	٦٩
الفصل الرابع: الحيوان.....	٧٧
أ - مصادر ثقافة الجاحظ في علم الحيوان.....	٧٩
ب - السبب في تأليف الجاحظ لكتاب الحيوان.....	٨٦

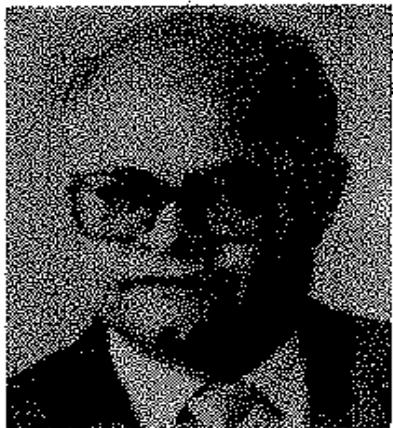
الموضوع

الصفحة

ج - وصف بعض الحيوانات بين أرسسطو والجاحظ.....	٨٩
د - مقارنة بين أرسسطو والجاحظ..	١٠٠
ه - موقف الجاحظ من أرسسطو ..	١٢٠
الفصل الخامس: الجاحظ والعلم الحديث.	١٤٧
أ - سيكولوجية الحيوان عند الجاحظ	١٢٩
ب - الجاحظ ونظرية التطور	١٣٦
الفصل السادس: الإنسان عند الجاحظ... .	١٥٩
أ - ما الإنسان؟.....	١٦١
ب - العقل.....	١٦٥
ج - النفس الإنسانية.....	١٧٢
ه - الإنسان كائن اجتماعي.....	١٨٢
هـ - النزعة الإنسانية عند الجاحظ..	١٨٦

فهرس المصادر والمراجع..... ١٩١

فهرس الموضوعات..... ٢٠٠



المؤلف في سطور

ـ د . محفوظ على حسن عزام ، من مواليد ١٩٤٠ / ٧ / ١٢
ـ أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد ووكيل كلية الدراسات العربية
والإسلامية للدراسات العليا والبحوث - جامعة المنيا .
المؤهلات العلمية .

- ١ - ليسانس دار العلوم عام ١٩٦٧ .
 - ٢ - ماجister في الفلسفة الإسلامية من دار العلوم ١٩٧٩ بتقدير متinar .
 - ٣ - دكتوراه في الفلسفة الإسلامية من دار العلوم عام ١٩٨٣ بتقدير مرتبة الشرف الأولى .
- تدرج في الوظائف .

- ١ - عمل مدرساً لغة العربية التربية الدينية في الفترة من ١٩٧٦ - ١٩٨٢ م . بمصر وال سعودية بالمرحلة الثانوية .
- ٢ - عمل محاضراً مادة الثقافة الإسلامية - بكلية الملك خالد العسكرية بالرياض عام ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م .

- ٣ - عمل أستاداً مساعدًا مادة الثقافة الإسلامية - بكلية الملك خالد العسكرية بالرياض حتى عام ١٩٨٦ م .
- ٤ - عمل مدرساً مادة الفلسفة الإسلامية بكلية الدراسات العربية - جامعة المنيا .

- ٥ - عمل أستاداً مساعدًا مادة المذاهب المعاصرة بقسم العقيدة - بكلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض من عام ١٩٨٨ - ١٩٩١ م .

- ٦ - عمل أستاداً مساعدًا ورئيساً لقسم الفلسفة الإسلامية - بكلية الدراسات العربية جامعة المنيا اعتباراً من ١٠ / ٢١ / ١٩٩١ م .

To: www.al-mostafa.com